أشهر أنهار العالم

باشراف

الدكتور عز الدين فريد

٥٠

الهدسون

نهر له تاريخ

obeikandl.com

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة — نيويورك

أبريل سنة ١٩٧٠

دار الأدب العربي للطباعة
لصاحبها محمد عبد الرزاق

١٩ كنيسة الأرمن ش الجيش
تليفون : ٩٣٤٠٩٨

obeikandl.com

الهدسون
نهر له تاريخ

تأليف
مای ماكنير

ترجمة
مصطفى عبد الهادى

مراجعة وتقديم
الدكتور عز الدين فريد

الناشر
مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع
١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
تليفون ٥٦١٥٥

obeikandl.com

هذه الترجمة مرخص بها ، وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق .

This is an authorized translation of THE HUDSON by May McNeer. Copyright 1962 by May McNeer. Published by Garrard Publishing Company, Champaign, Illinois.

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف :

ماى ماكنير : من أشهر كتاب القصص التاريخية والإقليمية لصغار القراء . تخرجت فى مدرسة بوليتزر للصحافة بجامعة كولومبيا . حصلت على جائزة توماس أديسون . من بين مؤلفاتها عن حياة الأشخاص كتابان عن ويزلى وأبراهام لنكولن ، كما ألفت عدة كتب ، من بينها كتابان عن ألاسكا وكاليفورنيا .

المترجم :

مصطفى عبد الهادى : يعمل بمشروع الصوت والضوء . تخرج فى كلية المعلمين ، قسم اللغة الانجليزية . حصل على دبلوم الدراسات الصيفية من كمبردج . عمل مراقبا للعرض بمشروع الصوت والضوء ، فرئيسا للتشغيل بمشروع قلعة صلاح الدين .

المراجع والمقدم :

الدكتور عز الدين فريد : وكيل وزارة الثقافة سابقاً . تخرج فى مدرسة المعلمين العليا بالقاهرة سنة ١٩٢٨ . حصل على درجة الليسانس من جامعة ليفربول سنة ١٩٣٢ ، وعلى الدكتوراه من جامعة لندن سنة ١٩٣٧ .

عمل أستاذاً بكلية التجارة جامعة القاهرة من سنة ١٩٣٧ إلى سنة ١٩٥٥ ، ثم عميداً لكلية الآداب بجامعة القاهرة من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٦١ ، ومديراً لمعهد الدراسات الأفريقية بكلية آداب القاهرة من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٦٤ ، كما عين رئيسا لمجلس إدارة الدار القومية للطباعة والنشر .

محتويات الكتاب

تقديم بقلم الدكتور عز الدين فريد ... ... ط

١ ــ النهر العظيم الذى يجرى فى اتجاهين ١

٢ ــ تحت سيطرة الهولنديين ١١

٣ ــ الملك يهب النهر ٢٤

٤ ــ الحرب تشتعل على ضفاف النهر ٣٢

٥ ــ وادى نهر الهدسون ٤٩

٦ ــ مدينة ناطحات السحاب ٦٢

obeikandl.com

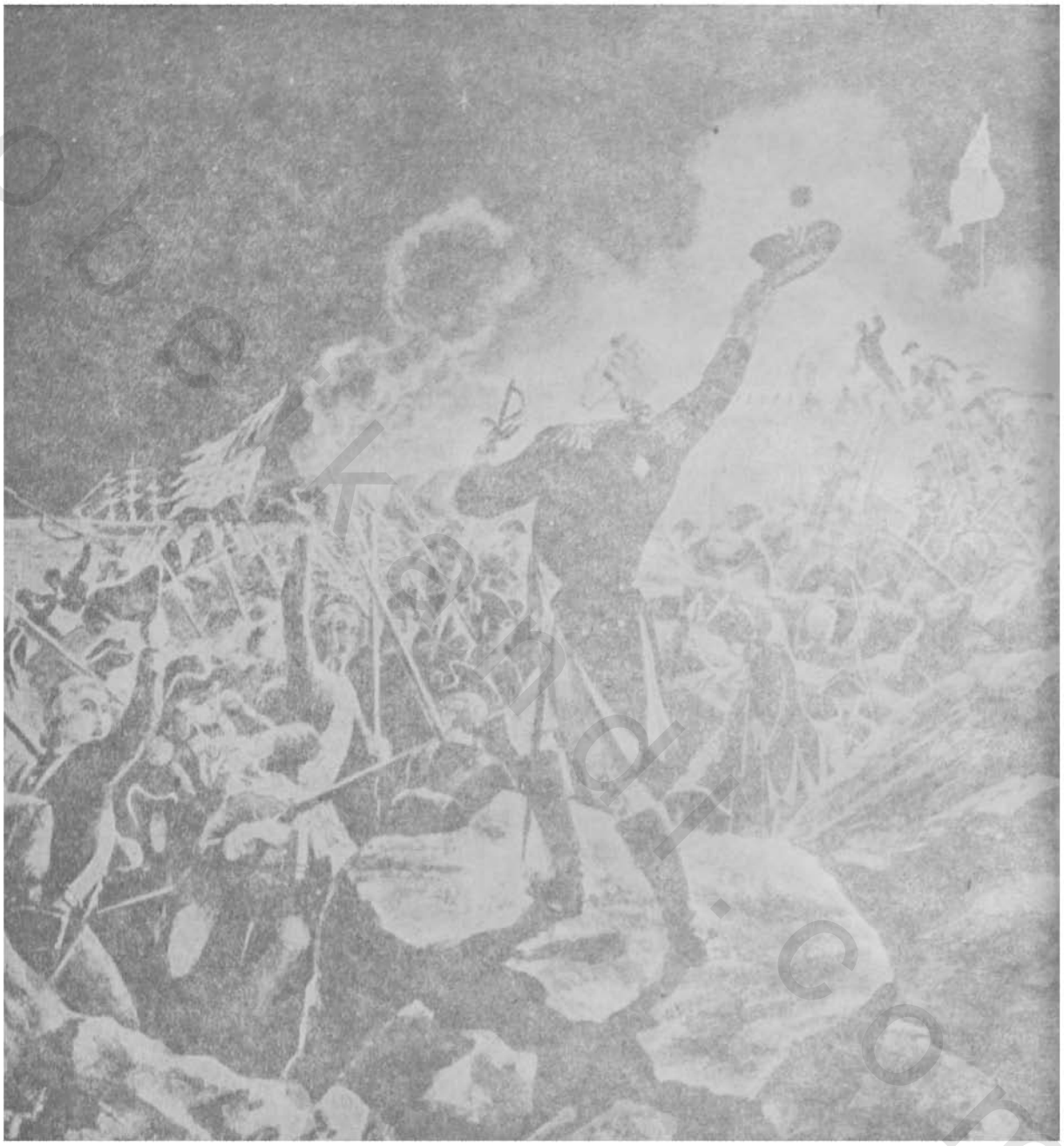

تقديم

بقلم

الدكتور عز الدين فريد

نهر هدسون من الأنهار الصغيرة جداً التى لا تكاد تلفت النظر على الخريطة ، وخاصة أن أمريكا الشمالية بها نهران آخران عظيمان هما: المسيسبى ، وسنت لورنس. فطول الهدسون من منبعه إلى مصبه ٤٩٠ كيلو متراً فقط . أى نحو المسافة من القاهرة إلى سوهاج ، وطول أكبر روافده - وهو نهر موهوك - أقل من نصف ذلك . ولكن الأهمية التى بلغها هذا النهر فى العصر الحديث توضح لنا أن العبرة ليست بالطول ، وإنما ترجع إلى مجموعة من العوامل الطبيعية والبشرية التى قد لا تتوافر فى زمن من الأزمان - وعندئذ لا تكون للنهر أهمية تذكر - ولكنها متى توافرت فإنها تجعل من النهر شيئاً آخر ، وتغير مظاهر الحياة فى واديه تغييراً شاملا .

فقبل أن يفد الأوربيون إلى أمريكا الشمالية كان الأهالى الوطنيون من الهنود الحمر ذوى حضارة بدائية ، فى مستوى حضارات العصور الحجرية فى العالم القديم . ولم يكن نهر هدسون بالنسبة إلى الأهالى الذين يقيمون فى حوضه سوى مجرى مائى صاخب قد يحصلون منه على بعض الأسماك ، ولكنه فيما عدا ذلك ظاهرة طبيعية رهيبة .

فلما جاء الأوربيون بحضارتهم المتقدمة أضافوا عنصراً بشرياً كان مفتقدا طول تاريخ النهر السابق . إذ كان لدى الوافدين الجدد سفن كبيرة عبرت بهم المحيط الأطلنطى من أوربا ، ولذلك لم تكن الأنهار لتخيفهم . فلم يلبثوا أن أدركوا ما لنهر هدسون من مزايا طبيعية - من حيث الموقع وعمق المجرى ودوام جريان الماء فيه - فتحول حوضه إلى منطقة من أرقى مناطق العالم فى الزراعة والصناعة والمواصلات .

فى عام ١٦٠٩ كانت شركة الهند الشرقية الهولندية قد كلفت الملاح البريطانى هنرى هدسون بالبحث عن طريق يوصل إلى الصين - سواء فى الاتجاه الشمالى الشرقى أو الشمال الغربى . وبالفعل بدأ هدسون رحلته حول شمال سكندیناوه ثم شرقاً فى « بحر بارنتس » ، ولكن الجليد حال دون تقدمه ، وكاد البحارة يتمردون عليه ، فما كان منه إلا أن غير اتجاهه وأقلع نحو العالم الجديد . وكان قد قرأ فى بعض كتب الرحالة السابقين أن هناك طريقاً بحرياً ضيقا ينفذ فى الأرض من المحيط الأطلنطى بالقرب من خط عرض ٤٠° شمالا . فلما وصل إلى خليج نيويورك الحالى (وكان فيرانسانو قد كشفه من قبل) لم يتوقف ، بل استمر بسفينته فى المجرى المائى الذى وجده يمتد فى الأرض ، ظناً منه أنه الطريق الملاحى الذى سيوصله إلى الصين . وبلغ فى تقدمه موقع مدينة ألبانى الحالية التى تبعد أكثر من ٢٠٠ كيلو متر من مصب النهر . وأدرك هدسون عندئذ أنه كان يصعد فى نهر لن يحقق حلمه فى الوصول إلى بحار الشرق ، ولكنه أثبت فى الوقت ذاته أن ذلك النهر يصلح للملاحة فى جزء كبير من مجراه . وفى طريق عودة هدسون إلى هولندة التى كان يعمل لحسابها - توقف بسفينته فى ميناء بريطانى ، فقبض عليه هو وبحارته ، ومنع من العمل فى خدمة دولة كانت تنافس بريطانيا فى استعمار العالم الجديد .

وقد ظل وادى هدسون تحت حكم الهولنديين حتى عام ١٦٢٥ ، وكانوا قد أنشأوا مدينة صغيرة عند مصب النهر أطلقوا عليها اسم « نيوامستردام » ، ولكن البريطانيين غيروا هذا الاسم إلى « نيويورك » بعد أن هزموا الهولنديين وحلوا محلهم فى تلك المستعمرة .

وكان من الجائز أن تظل المستعمرات البريطانية الأولى فى شرقى أمريكا الشمالية تابعة لبريطانيا حتى الوقت الحاضر - مثلها فى ذلك مثل نيوفوندلند وكندا ، ولكن سياسة الحكومة البريطانية إزاء المستوطنين - وخاصة فيما يتعلق بالضرائب - لم يراع فيها مصلحة هؤلاء السكان الذين أخذ تذمرهم يزداد حتى بلغ درجة التمرد فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر . ولما لم يجد الإنجليز مرونة فى معالجة ذلك

الموقف ، بل التجأوا إلى القوة لقمع المتمردين ، هب الأهالى ينادون بالانفصال عن بريطانيا ، ولشبت حرب الاستقلال الأمريكية التى كان بطلها جورج واشنطن والتى كان وادى نهر هدسون مسرحا لمعظم أحداثها . ومن هنـــا كانت نظرة الأمريكيين إلى وادى هذا النهر على أنه المساحة الصغيرة التى سجل فيها مولد الولايات المتحدة الأمريكية والمهد الذى نشأت فيه قوميتهم .

والآن ، وبعد مرور أقل من قرنين على استقلال الولايات المتحدة ، أصبح وادى ذلك النهر الصغير يضم نحو ٢٠ مليونا من السكان ، وقام عند مصبه ميناء من أكبر موانىء العالم ، ارتفعت فيه المبانى إلى علو شاهق ، لأن التوسع الأفقى كان محدداً بطبيعة جزيرة مانهاتن التى كانت نواة المدينة الأصلية ، فلم يكن هناك بد من التوسع الرأسى . وبعد ربط نهر هدسون بالبحيرات العظمى بواسطة قناة إيرى لم يعد النهر ذا أهمية محلية فقط ، بل أصبح ممراً مائياً يخدم مساحات أضخم بكثير من المساحات المحدودة لحوض نهر هدسون . كما اتخذ من واديه ووادى نهر موهوك طريقاً للسكك الحديدية التى تربط ميناء نيويورك بالبحيرات العظمى ، ومنها إلى السهول الفسيحة فى حوض نهر المسيسبى .

ويحكى هذا الكتاب للقارىء الصغير قصة هذا النهر بما نسج حوله من أساطير وما سجل على ضفافه من أحداث تاريخية ، كما يعطى صورة حية لمدينة ناطحات السحاب التى لا تهدأ الحركة فيها نهاراً أو ليلا ، وهو بذلك إضافة قيمة تقدمها مؤسسة فرانسكلين إلى مكتبة الناشئين فى سلسلة « أشهر أنهار العالم » لكى تتفتح أذهانهم ، وتنمو معارفهم .

وادى
نهر الهدسون
جبل مارسى
مصب نيكوندروجا
بحيرة نيبيسنج
الهدسون
جبال الأدرونداك
ممرات الهدسون
خزان سكانداجا
امستردام
فروى
شنكتادى
البانى
هدسون
نيويورك
كاتسكيل
جبال كاتسكيل
كنجستون
بوكيبسى
نيوبرج
جبل ستورم كنج
ويست بوينت
جبل بير
ستوني بوينت
هاف مون
التلال البيضاء
بوكيبسى
بالسيدز
جسر جورج واشنطن
نيو آرك
جرسى
شمال
جنوب
خزان كراجين
سهل فيلمر
هارتفورد
كونيكتيكت
بحيرة كاندلوود
دانبرى
نيوهافن
بريدجبورت
خليج لونج ايلاند
لونج ايلاند
المحيط الأطلنطى
برونكس
كنوبر
مدينة هيرسى
جزيرة ستاتن
سلدرى هوك

١ - النهر العظيم الذى يجرى فى اتجاهين

يشتهر نهر الهدسون بجمال شواطئه ومجراه القديم الذى يمتاز بالعمق الكبير . وهو يبدأ من بحيرة « تيرأوف كلاودز Tear of the Clouds أى (دمعة السحب) فى منطقة جبال (أديروندالك) بولاية نيويورك ، ويبلغ طول مجرى الهدسون ٣١٥ ميلا من منبعه حتى مصبه فى المحيط الأطلنطى . وتبدو بحيرة (تيرأوف كلاودز) كجوهرة تتلألأ على سفح جبل (مارسى) الذى كان هنود هذه المنطقة يطلقون عليه (مفرق السحب) .

وتتصل بالنهر روافد أخرى ، ويزداد حجمه ، وتتعثر مياهه فوق الجنادل والشلالات التى تعترض طريقه ، وبعد ذلك يصبح المجرى الرئيسى لنهر هدسون .

وأكبر روافد نهر هدسون هو نهر (موهوك) الذى يتصل به من الغرب على مسافة بضعة أميال من شمالى ألبانى ـ عاصمة ولاية نيويورك ، ويربط نهر موهوك وادى هدسون بإقليم فنجرليك فى قلب ولاية نيويورك .

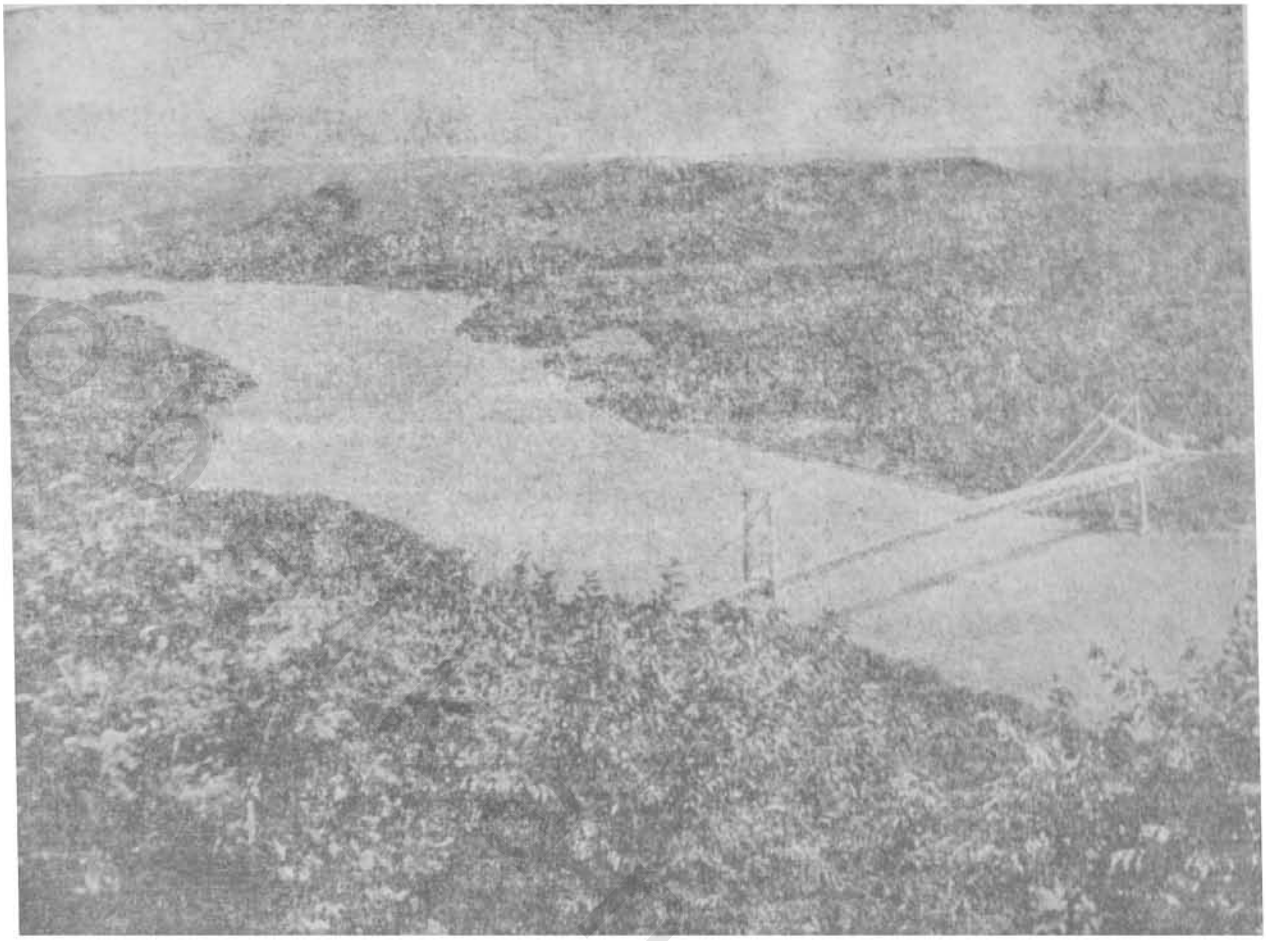

من جبل بير يتعرج النهر مخترقا الهايلاندز

ويتدفق نهر الهدسون صوب الجنوب شاقاً طريقه بين ضفتين غير مرتفعتين ، ثم يسير بين تلال منخفضة حتى يبلغ مدينة ألبانى ويتجاوزها . وهنا يقل اتساع النهر عن ربع ميل . ولكنه يكون من العمق بحيث يسمح لبعض عابرات المحيط أن تصل حتى هذه المنطقة .

ومن ألبانى يأخذ النهر فى التعرج بمنعطفات كبيرة تخترق جبال كاتسكيل ، حيث يطلق على وادى الهدسون اسم هايلاندز (الأراضى المرتفعة) . ويمتاز النهر فى هذه المنطقة بالمناظر الخلابة ؛ إذ نراه يدور حول المنحنيات الحادة والرءوس المدببة ، أو (الخطاطيف) كما كان يسميها الهولنديون ، وقد أطلقت على بعض

القمم المستديرة البارزة أسماء لها دلالتها مثل (ستورم كينج) أى ملك العواصف ، وهاى تاور ، أى القمة المرتفعة ، وبير أى الدب ودوندربرج أو جبل الرعد .

ويأخذ النهر فى الاتساع جنوبى الجبال حتى يبدو كأنه سلسلة من البحيرات ، ويبلغ أكثر اتساع له فى منطقة تسمى خليج « هافرسترو » حيث يبلغ عرضه ثلاثة أميال وتكاد منطقة (تابان زى) ؛ (أى بحر تابان) التى تقع أسفلها مباشرة تبلغ نفس الاتساع ، ثم يسير النهر جنوباً لمسافة تبلغ نحو ٢٠ ميلا ، متجاوزا جزيرة مانهاتن فى الشرق ، وهى مدينة نيويورك الآن . أما فى الغرب فيلامس النهر شواطىء نيوجرسى حيث تحف بمجراه أجراف مرتفعة تسمى (باليسيدز) ويعرف الهدسون هنا باسم « نورث ريفر » ويصبح جزءاً من ميناء مدينة نيويورك .

وتوجد تحت سطح النهر هوة كبيرة تزداد عمقا كلما اقتربت من المحيط الاطلنطى ، وقد حدث هذا ، وكان ذوبان آخر غطاء جليدى فى عصر الجليد هو السبب فى تكوين هذا الوادى العميق تحت مياه الهدسون ، وفى المسافة من المحيط الاطلنطى إلى مدينة ألبانى يهبط قاع هذا الوادى إلى ما دون مستوى سطح البحر ، وهذا يسمح لمياه المحيط الملحة بالمد والجزر إلى مسافة تبلغ ١٥٠ ميلا صعوداً فى النهر .

ويتصل نهر الهدسون بنهر (إيست) وعدة نهيرات أخرى عند الجزء الجنوبى من جزيرة مانهاتن لتكون خليج نيويورك الأعلى ، ويبلغ اتساع هذا الخليج نحو ثلاثة أميال ، ثم يسير النهر مخترقاً مجرى عميقاً يسمى (نارو ز) أى الممرات الضيقة ، ويقع بين لونج آيلاند وجزيرة (ستاتن) ، وبعد « النارو ز » يقع الخليج الأسفل ثم المحيط الأطلنطى .

ويمتد هذا الغور الشديد العمق فى المحيط على شكل واد كبير له قاع منبسط عمق ٣٠ قدما من السطح يأخذ فى العمق بالتدريج حتى يصل إلى ٣٦٠٠ قدم تحت مياه المحيط ، وحتى بعد هذه المنطقة يهبط مجرى النهر هبوطاً آخر أطلق عليه اسم « شلالات المحيط » ، وهنا يصل عمق قاع الغور إلى ٧٥٠٠ قدم تحت سطح مياه المحيط .

كان نهر الهدسون ووادية - قبل مجىء الرجل الأبيض - ملكا لقبائل مختلفة من الهنود الحمر. فإلى الشمال من جبال كانسكيل كانت تعيش قبائل الإيروكوا على صيد الحيوان فى الأراضى التى تحتلها ، أما إلى الجنوب من الهايلاندز ، فإن عددا من القبائل كانوا يشيدون أكواخهم من الحشائش ولحاء الشجر ، وكان بعضهم

تمتد جبال الياليسيدز لمسافة ٢٠ ميلا على شاطىء نيوجيرسى

يتكلم اللغة الإلجونكية ومنهم «الديلاويرز» الذين كانوا يصطادون فى غابات ذات أشجار ضخمة . وفى فصل الربيع كانوا يصطادون أسماك الصابوغة ، ويسبحون فى النهر مثل القضاعة أو ثعالب الماء ، كما كانوا يعبرون النهر بخفة من ضفة إلى أخرى فى قواربهم المنحوتة من جذوع الأشجار . أو يعبرونه مشياً فوق الجليد فى فصل الشتاء . وكانت جماعة الماناهاتا على الشاطىء الشرقى ، وجماعة لينى لينابى (وهى فرع من الديلاويرز) على الجانب الغربى ، يميلون عادة إلى المسالمة . والاسم الذى يطلق على مانهاتن ، أو جزير مانهاتن - أوماناهاتا - يعنى (أرض الجمال) ، ولما كانت مياه المد المالحة تتوغل مسافة كبيرة فى مجرى النهر ، فقد أطلق الهنود على نهر الهدسون اسم : « النهر العظيم الذى يجرى فى اتجاهين » .

(نموذج للسفينة هاف مون)

obeikandl.com

وقد شهد عام ١٥٢٤ وصول أول جماعة من الرجال البيض إلى ذلك النهر الذى يجرى فى اتجاهين ، وكانوا بقيادة « جيوفانى دافيراتسانو » ، ولكنهم لم يتجاوزوا مصب النهر .

وفى عام ١٦٠٩ أبحر الربان الانجليزى هنرى هدسون صوب الغرب باحثا عن طريق يوصله إلى الصين على سفينته الصغيرة (هاف مون) ، فدخل نهراً أطلق عليه اسم (نهر الجبال العظيم) . وكانت سفينة هنرى هدسون متينة رغم صغر حجمها ، تعمل لحساب شركة الهند الشرقية الهولندية .

وبحارتها خليط من الانجليز والهولنديين ، وقد أثارت شواطىء النهر إعجاب القبطان هدسون ، وكذلك تلك الجزر الكثيرة التى شاهدها فى المرفأ ، والتى يطلق عليها الآن ، جزيرة ستاتن ، وجزيرة جافرناوز ، وجزيرة اليس ، وجزيرة بدلوز أو جزيرة الحرية .

وما إن ألقت « الهاف مون » بمراسيها قرب جزيرة المانهاتا حتى جدف إليها بعض الهنود الذين كانوا يرتدون ملابس من جلود الأيائل الناعمة ، ووقفوا فى قواربهم تحت مقدم السفينة المرتفع ليقدموا هدايا من الفواكه والذرة ولحوم الصيد . ورحب بهم القبطان هدسون على ظهر السفينة وقدم لهم بدوره بعض الهدايا الصغيرة . وبعد ذلك نزل إلى الشاطىء حيث حضر وليمة أعدت خصيصاً له ، وكتب فى سجل السفينة : « إن الأهالى السمر وقفوا يغنون بطريقتهم بين أشجار البلوط » .

وعند ما أبحروا صاعدين فى النهر دخلت « الهاف مون » فى إقليم الهايلاندز ووصلت تقريباً إلى حيث تقع مدينة ألبانى عاصمة ولاية نيويورك حالياً ، وهنا أدرك هدسون أنه لم يعثر على الطريق إلى الشرق ، فأدار مقدمة سفينته الصغيرة وعاد أدراجه نازلا فى النهر .

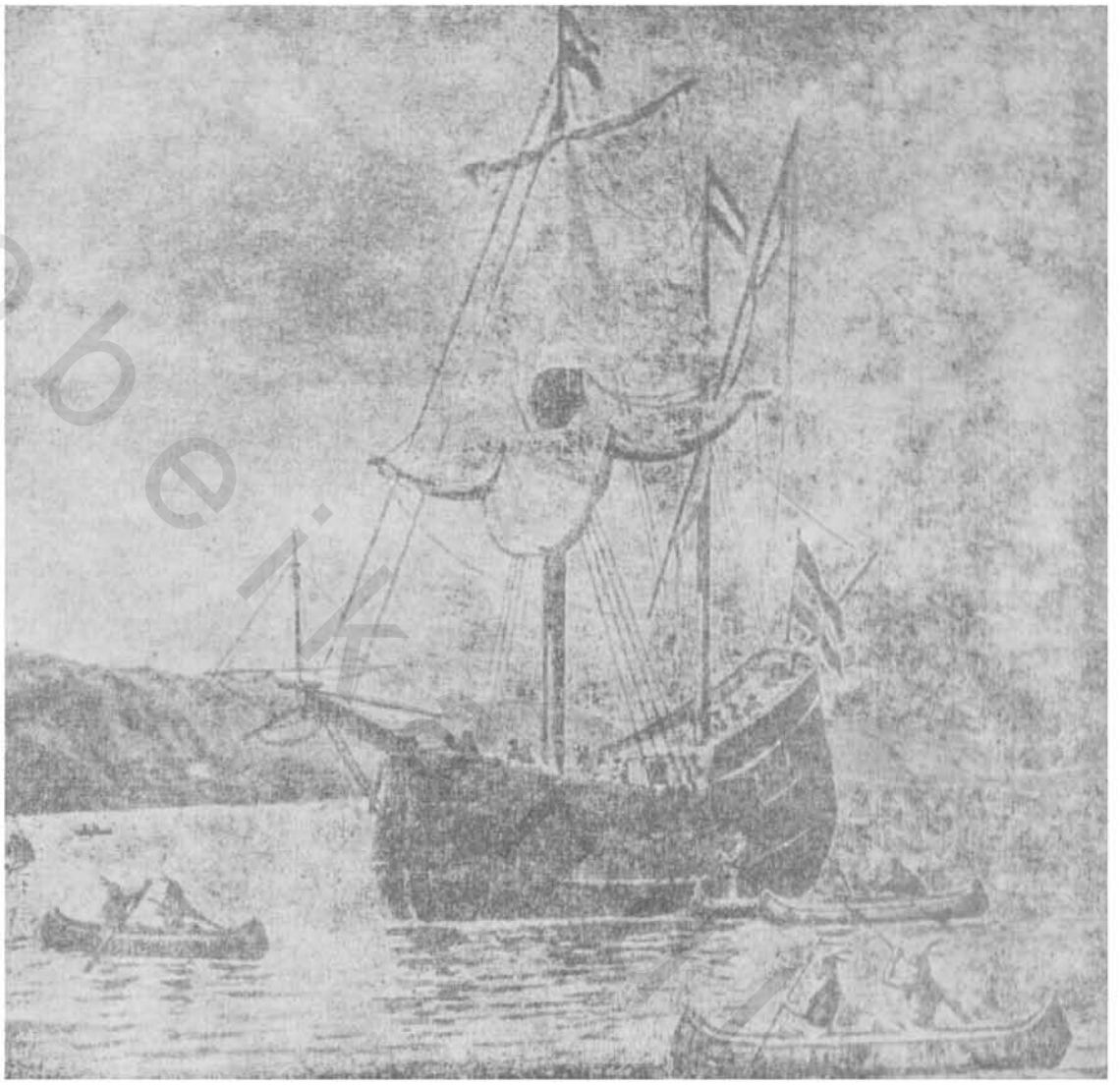

يبين هذا الرسم القديم الهنود عندما خرجوا فى النهر ليقابلوا « الهاف مون »

وبينما كانت السفينة راسية ذات ليلة ـ اقترب أحد الهنود بقاربه من السفينة ونفذ إليها من خلال إحدى الكوات . وبعد قليل عاد ثانية إلى قاربه حاملا عدة أشياء قام بسرقتها . وشعر أحد البحارة بحركة ما ، فأطلق بندقيته فسقط الهندى من قاربه فى الماء .

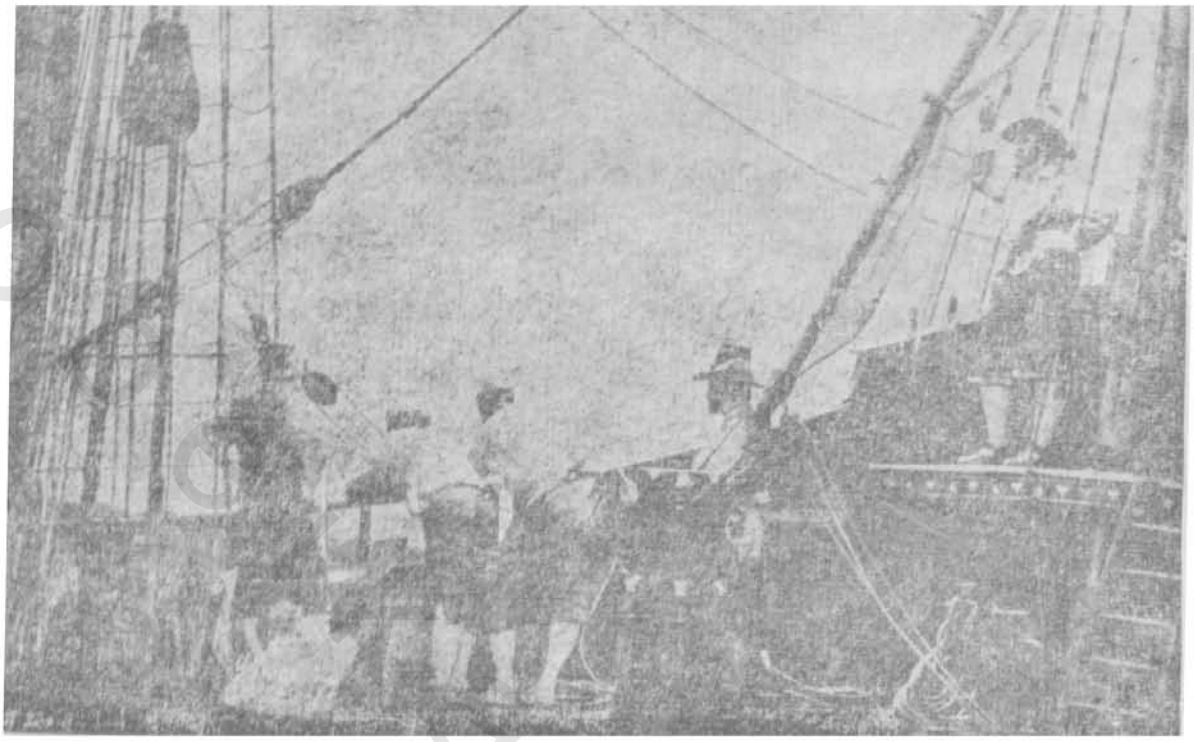

يضم معرض مدينة نيويورك هذا النموذج الذى يبين « الهاف مون »
عندما جاءت لميناء نيويورك عام ١٦٠٩

وأمضى البحارة الليل بطوله وهم يراقبون وأيديهم مستعدة على السلاح . وما إن أشرقت الشمس فى صباح يوم جميل من أيام شهر أكتوبر حتى حاصر الهنود السفينة بقوارب الحرب وأخذوا يطلقون السهام من قواربهم التى يوجهها ببراعة جماعة من المحاربين الذين طلوا أجسامهم بألوان الحرب . وقد قتل بعض البحارة فى أثناء إطلاقهم النار من بنادقهم على القوارب التى كانت تكر وتفر بسرعة وحذق . فما كان من القبطان كابتن هدسون إلا أن أقلع بالسفينة على الفور . وبينما كانت السفينة « هاف مون » تدور فى منعطف للنهر مرت تحت جرف بارز فوق المجرى كان يقف عليه نحو المائة من المحاربين الهنود الذين أطلقوا وابلا من

السهام على السفينة ، ووصلت والهاف مون ، إلى المرفأ بعد أن التزمت السير فى وسط المجرى تماماً ثم خرجت إلى عرض البحر ، وأخيراً رست فى ميناء آمن بهولندا . أعلنت الشركة الهولندية أن اكتشاف هدسون يعتبر من ممتلكاتها ، لأنه كان يعمل لحسابها ، ولم يقدر لهنرى هدسون أن يعود مرة أخرى إلى نهره العظيم . ولكن بعد مرور بضع سنوات أطلق الانجليز اسمه على هذا النهر ، وبالطبع لم يكن القبطان هدسون يحلم يوماً ما بأن تقام أغنى مدينة فى العالم على نهر يحمل اسمه .

obeikandl.com

٢ ـ تحت سيطرة الهولنديين

ظل النهر الذى يجرى فى اتجاهين ملكا للهنود الحمر لا ينازعهم فيه أحد لمدة خمس عشرة سنة بعد توارى السفينة هاف مون تحت الأفق الشرقى ، وفى خلال هذه السنوات أبحر بعض الغرباء الشاحبى اللون صاعدين فى النهر ، وشيدوا حصنا صغيراً من الكتل الخشبية للتجارة فى الفراء ، وأطلقوا عليه اسم حصن (ناساو) غير أنهم تركوا الحصن خلفهم وأقلعوا عبر المحيط بعد فترة وجيزة .

وفى أحد أيام عام ١٦٢٣ ، شاهد الهنود سفينة أخرى فى النهر راسية بالقرب من جزيرة المانهاتا الخضراء ، وعلى ظهر تلك السفينة (هولندا الجديدة) تزاحم الرجال والنساء والأطفال حول حاجز السفينة وقد بهرهم جمال الشاطىء ، وكانوا يتحدثون بحماسة باللغة الفرنسية ، إذ أنهم كانوا من جماعة الوالون البروتستانت الذين فروا من الأراضى المنخفضة الاسبانية هربا من الاضطهاد بسبب مذهبهم الدينى .

وقد أطلقت كل جماعة من المستوطنين الجدد اسما مختلفاً على النهر . إذ أسماه الوالون (نهر موريتيوس) تخليداً لذكرى قائدهم موريس أمهد أورانج ، كما رحل بعض الفلاحين إلى الشمال حيث « النهر العذب » الذى سمى فيما بعد باسم (كونيكتيكت) . واتجهت فئة أخرى جنوباً إلى نهر ديلاوير ، ولم يستوطن فى جزيرة مانهاتن عند مصب النهر سوى عدد قليل .

وأبحرت السفينة « هولندا الجديدة » مخترقة مدينة الهايلاندز وهى تحمل ثمانى عشرة أسرة ، حتى بلغت أطلال حصن (ناساو) وبعد أن تجاوزوه ببضعة أميال نزلوا إلى الشاطىء على الضفة الغربية وشيدوا حصن أورانج على قمة تل قريب من النهر .

وعلى الرغم من خصب الأرض فإن الزراعة لم تصادف نجاحاً كبيراً هناك ، ووجد الوالون أنهم لو اتجروا مع الهنود لكان ذلك أيسر لهم وأكثر ربحاً ؛ إذ أنهم يستطيعون شراء الفراء الثمينة ببضع حلى رخيصة .

وخلال السنوات القليلة التالية انضم إلى الوالون فى حصن أورانج وفى جزيرة مانهاتن كثير من المهاجرين الجدد من هولندا وفرنسا وانجلترا وإيرلندا وسكوتلاند وألمانيا .

وعلى الرغم من أن الحكومة الهولندية كانت فى حاجة ماسة إلى الفلاحين فى وادى النهر ، لفلاحة الوادى ، إلا أن هؤلاء كانوا بمجرد وصولهم يعزفون عن العمل الشاق فى فلاحة الأرض ويشرعون فى الاتجار فى جلود الثعالب والسمور . ولتشجيع الزراعة تم استحضار كثير من الحيوانات المستأنسة فى ثلاث سفن كانت تسمى (هورس) ، أى الحصان ، وتشيب (أى الغنم) ، و (كاو) أى البقرة . ولكن المستوطنين لم يبالوا بذلك .

وبعد سنوات قليلة ارتفعت قيمة جلد السمور إلى حد أنه استخدم كعملة ، فكانت قيمة البضائع تقدر بما تساويه من جلود السمور .

غير أن الحكومة الهولندية كانت تريد الاحتفاظ بهذه الأراضى ، فلكى تشجع الزراعة قامت بمنح إقطاعيات من الأرض فى وادى الهدسون لبعض الهولنديين الأثرياء ، وأطلق على المالك منهم اسم (باترون) ، واستطاع هؤلاء أن يحضروا مستأجرين لا تسمح لهم مواردهم بشراء أرض ليعيشوا هناك ويقوموا بفلاحة تلك الضياع فى مقابل إيجار يدفعونه للملاك - وكان ذلك الإيجار يستنفد جزءاً كبيراً من الحبوب والمحصولات الأخرى ، علاوة على جميع النتاج الحيوانى الجديد وترك حكم تلك المساحات الشاسعة إلى تلك الحفنة من الهولنديين الأثرياء .

وكان هناك باترون يدعى « كيلين فان رنسيلير » من كبار تجار المجوهرات فى هولندا ، غير أنه لم يحضر بنفسه إلى أمريكا ، بل أرسل مديراً لمباشرة اقطاعه الضخم الذى كان يمتد على جانبى نهر الهدسون بالقرب من حصن أورانج الذى هو الآن مدينة ألبانى ، ثم جاء أولاد فان رنسيلير ليستقروا على ضفاف الهدسون ، وكانوا يحكمون كالملوك لا يجرؤ أحد على معارضتهم وكان مقرهم فى قصر منيف أطلقوا عليه اسم « رنسيلير زويك » .

واستمر نظام «الباترون» ساريا طوال قرنين فى وادى نهر هدسون ، مما أدى إلى ثراء الملاك والإبقاء على المستأجرين من الفلاحين فيما كانوا عليه من فقر . وفى عام ١٦٢٦ جاء من هولندا (بيترمينويت) ليكون أول مدير عام لمستعمرة (هولندا الجديدة) ، وكانت « نيو أمستردام » البلدة الوحيدة ذات الأهمية فى المستعمرة ، ولحماية مساكنها الضيقة وحدائقها وطواحينها أقيم حصن خشبى على قمة تل وشيد حائط من كتل خشبية رأسية على طول الطرف الشمالى للبلدة ، وفيما وراء ذلك كانت توجد المزارع التى اقتطعت من الغابة .

وفى أحد الأيام قام (بيترمينويت) بدعوة زعماء الجماعات الهندية الصغيرة ، التى كانت تتجول فى الجزيرة بحرية تامة ، وكان اجتماعهم تحت إحدى الأشجار الكبيرة ، وفيه توصلوا إلى اتفاق مع (مينويت) ، سجل فى أقدم مخطوط يروى تاريخ « نيوأمستردام » .

(يبين هذا النموذج بيترمينوبت وهو يتساوم مع الهنود)

وفى هذا الاجتماع وقف أكبر الزعماء يطالب بحقوق مواطنيه وقال : « لقد تشاورنا وقررنا أن نقبل هداياكم وندعكم تقطنون فى جزيرة مانهاتا . وستتجول فى الجزيرة كما تشاء وتقيم . على أننا سنستمر فى تجوالنا ذهاباً وجيئة ، وفى إقامة أكواخنا ، وفى ممارسة الصيد كما اعتدنا أن نفعل دائماً » .

ثم وقف المدير العام بملابسه الهولندية المزركشة وحلية حذائه الفضية تلمع تحت أشعة الشمس ، وتكلم مخاطباً الزعماء ومحاربيهم ، ثم أمر بمنحهم الهدايا لإدخال البهجة فى نفوسهم ؛ وكانت تتكون من السكاكين والأوانى المعدنية والخرز والملابس بما قيمته ستون جيلدرا هولنديا ، أى حوالى أربعة وعشرين دولاراً .

وما لبثت بلدة « نيوامستردام » الهولندية الصغيرة أن نمت بسرعة على جزيرة مانهاتن ، فاستقر بها التجار الهولنديون مع زوجاتهم الممتلئات وأولادهم وبناتهم ، وتحت الأسقف المثلثة لبيوتهم المبنية من الأحجار كانوا ينعمون بحياة مريحة ، وقد توافر لهم الكثير من الطعام والشراب ، وكانت الزوجات يقضين نهارهن فى التنظيف وإعداد الطعام والثرثرة مع جاراتهن . وفى نهاية اليوم يعود أزواجهن جماعات إلى منازلهم حيث يأخذون فى تدخين غلاييمهم الطويلة .

وفى القرن السابع عشر لم تكن نيوامستردام مدينة هولندية خالصة ، فقد كان التجار يأتون من « نيوانجلند » إلى نهر الهدسون ثم يعودون ، كما كانت السفن

يبين هذا النموذج فى المتحف أول طريق مرصوف فى مدينة نيوأمستردام عام ١٦٥٩

تأتى من أماكن أخرى من العالم أيضاً ، وكان البحارة من بلاد كثيرة ينزلون إلى الشاطىء لشراء وبيع البضائع من كل لون ، وكثير من هذه الأشياء كان يتم تهريبها إلى داخل البلاد تحت أعين المفتشين أنفسهم ، وكان التجار الهولنديون يتعاملون مع المهربين .

ونظراً لانعدام وسائل الترفيه كان المستوطنون يتسلون بالدعابات العملية بعضهم على بعض ، ففى إحدى الليالى اقترب نافخ البوق فى المدينة (أنتونى فان كورلير) من أذن أحد أصدقائه ثم نفخ فى بوقه نفخة قوية ، وقد شوهد أنتونى لعدة أيام بعد ذلك ، وقد أحاطت بعينيه هالة زرقاء ، وظهرت بعض الكدمات فى وجهه ، وكان أكثر مايؤلمه تلك الضحكات الساخرة التى كانت تتابعه أينما ظهر .

وقد اتصف هؤلاء الهولنديون بحبهم للعراك ، وكثيراً ما كانوا يذهبون إلى المحكمة بتهمة المشاكسة ويشكون أصدقاءهم إذا بدت منهم أية مضايقة ، وبلغ بهم الأمر أنهم كانوا يوبخون رجال الدين عند إلقائهم مواعظ عن النار وجهنم ، فعندما هاجم (دومينى) رجال البلدة بسبب خطاياهم كان ردهم عليه أن قرعوا جميع الأجراس فى البلدة ، وأرسلوا فرقة موسيقية لتعزف أمام الكنيسة بأعلى مايمكنها ليطغى ضجيجها على مواعظ دومينى .

وفى السنوات التى أعقبت اتفاق (مينويت) مع الهنود قام بعض المزارعين الهولنديين المستقلين باستقطاع أراض لهم عبر النهر فى (نوفا سيزاريا) ، وهى (نيوجيرسى) حالياً ، فطهروا حقولهم ، وشيدوا المنازل والمخازن من الحجر الأحمر ، وفى الشمال من جزيرة مانهاتان على الضفة الشرقية استقر عدد آخر من « الباترون » استولوا على أرض أكثر مما يحق لهم ، ولكن الحكام الذين جاءوا بعد مينويت لم يحاولوا منعهم من ذلك .

وفى عام ١٦٤٦ أصبح (بيتر ستويفيسانت) مديراً عاماً ، أو حاكما لهولندا الجديدة، وبمجرد وصوله علم أن مدير إقطاعية (فان رانسيلير) - ويدعى كرول - يضم خلسة أراضى تابعة للمستعمرة ، وكان المستأجرون من المزارعين يسمونه «اللص الرمادى العجوز» ، وكان ستويفيسانت مبعوثا من قبل شركة الهند الغربية الهولندية التى تتولى شئون المستعمرة ، ولما كان ستويفيسانت رجلا أمينا فقد قرر أن يوقف كرول عند حده ، وعلى الرغم من ساقه الخشبية ، فقد صعد إلى إحدى السفن التى ستبحر فى النهر ومن خلفه مجموعة كبيرة من الجنود ، واتجهوا صوب الشمال ينشدون اللص الرمادى العجوز .

وعندما وصلت السفينة إلى حصن أورانج تمكن ستويفيسانت من رؤية الحصن الخشبى وقد رفع فوقه علم المستعمرة ، ولكن كرول كان قد شيد مبانى كثيرة لفان رانسيلير خارج أسوار الحصن ، فاشتعل ستويفيسانت غضبا وقفز من السفينة إلى قارب صغير ، وما إن وصل إلى الشاطىء وجنوده فى أعقابه حتى صاح فيهم : «أنزلوا هذا العلم» ، وتجهم اللص الرمادى العجوز ولكنه لم يكن ليجرؤ على مقاومة الحاكم - ثم قام بيتر ذو الساق الخشبية بتحديد أرض الشركة وأطلق عليها «بيفرويك» ، وأقام حكومة هناك لكبح أطماع الباترون والتصدى لمشاغبات سكان الحدود .

* * *

وظلت مئات من الأشرعة البيضاء تتألق على مياه الهدسون لعدة سنوات لايعطلها سوى الجليد والثلوج فى الشتاء ، وعندئذ تلوذ بالأحواض الشتوية ، وكانت تلك السفن ذات الشراع الواحد تدهن بالألوان الحمراء والزرقاء والصفراء الزاهية ، وقد صممت خصيصا للملاحة فى هذا النهر .

وكان طولها يبلغ عادة حوالى سبعين قدما ، ولها مقدمه مستديرة مرتفعة ، وكانت ساريتها الشاهقة توحى بأن السفينة مختلة التوازن ، ومع ذلك فقد كانت تلك السفن الهولندية مناسبة جدا للملاحة فى هذا النهر العميق الكثير الانحناءات الذى تهب عليه رياح مختلفة الاتجاهات .

وكان قباطنة هذه السفن من الهولنديين الذين يعرفون كل صغيرة وكبيرة فى مجرى النهر ، وجميع أنواع الرياح التى تهب عليه ، وكيفية تأثره بالمد والجزر.

وكان البحارة يتكلمون عدة لغات ، إلا أن اللغة الهولندية كانت الأكثر استخداما، وكانت بعض السفن تستخدم ملاحين من العبيد السود أحيانا ، ومع ذلك فقد كانوا يتكلمون اللغة الهولندية .

وعندما يصعد أحد التجار فى نيو أمستردام إلى ظهر السفينة فإنه يعد نفسه للقيـــام برحلة طويلة فى النهر ، فيأتى أصدقاؤه لتوديعه كما لو كان سيعبر المحيط الأطلنطى .

وكان الركاب يستمتعون بالقصص التى يرويها القبطان ، إذ كان بمقدور قبطان السفينة الهولندى أن يسرد قصصا خيالية ممتعة حول كل مايحيط بجزيرة مانهاتان ومجرى النهر من شواهد أرضية ، كما يمكنه أن يصف الجان والعفاريت الخاصة بالوادى وصفا يجعلها تبدو حية كالبحارة أنفسهم .

سيدى . . هل تعرف بوابة الجحيم ؟ حيث تغلى مياه نهر ايست على الصخور حذار ياسيدى أن تبحر فوق هذه المياه فى الليالى المظلمة ، أو عندما تهب رياح

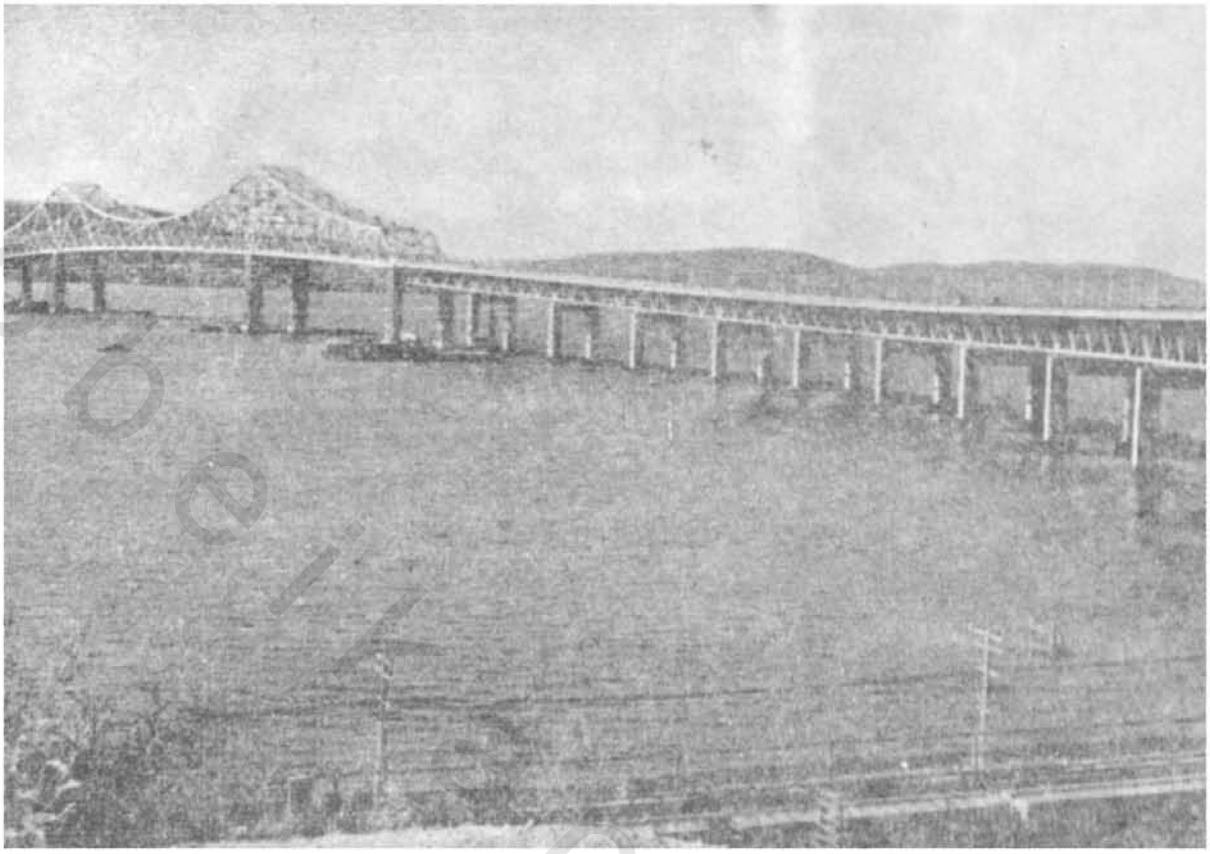

يبلغ عرض النهر عند جسر تابان زى حوالى ثلاثة أميال

عاصفة . لاتفعل ذلك أبدا ياسيدى . لأنك إن فعلت ذلك فسوف يصدمك شبح القرصان الأسود بسفينته - وهو القرصان الذى قتله بيتر ذو الرجل الخشبية . إن نهر هدسون أكثر أماناً ياسيدى - فعلى شواطئ جزيرة مانهاتن فى ليلة عاصفة - كثيراً مايسمع ذلك الشبح وهو يجدف بمجاديف مكتومة الصوت » .

وعندما يقلع قبطان بسفينته فى مياه تابان زى المتسعة كثيرا ما كان يتملكه الخوف من مشاهدة سفينة الشبح . وكانت تروى قصص عديدة عن سفينة العواصف بمنطقة تلال (باليسيدز) ، ويقال إنها كانت أحيانا تنتقل بين ضفة وأخرى وكأنها طيف أو ضباب رمادى ، وكانت مشاهدتها تدل القبطان على أن عاصفة هوجاء سوف تهب قبل بزوغ الصباح .

وكانت السفن فى صعودها فى نهر الهدسون تمر بمنطقتى (التونيزنوز) و « ستورم كينج ماونتين » ، وكان هذا هو إقليم تلك الأقزام المسحورة الصغيرة التى تقطن الهايلاندز . وكان الملاحون يعتقدون أنهم يرتدون سراويل هولندية فضفاضة ، وصديريات جلدية ، وقبعات عالية . وكان هؤلاء الأقزام - كما تروى الأساطير - مغرمين بلعبة القنانى الخشبية ، فإذا ماوجهوا الكرة إلى تلك القنانى وأخذت فى التساقط فإن الرعد يزجر فوق مجرى النهر .

وعندما كانت سفينة من السفن تعبر المنحنى أسفل جبل « دوندبرج » ، فإن ربانها كان يصدر أمرا بخفض الشراع الأكبر. فإذا كان هذا الموقع هو موطن عفريت يسمى (هير) (أى السيد) ، وكان بمقدور هذا العفريت أن يثير عاصفة تغرق السفينة التى لاتحييه باحترام .

ويقول بعض الذين ادعوا أنهم شاهدوه إنه يرتدى قبعة فى شكل قمع السكر . وكان عندما يصيح بالهولندية فى بوقه يتردد الرعد بين جوانب الجبل ويومض البرق بين ضفتى النهر .

وأيضا إذا ما أبحرت سفينة نحو قرية تسيكل كان بإمكان الركاب أن يشاهدوا الجبال التى ترتفع خلفها . وهناك استغرق « ريب فان وينكل » فى النوم وبجانبه كلبه الجائع ، وعندما استيقظ أخذ يلعب بالكرة مع أقزام « الهايلاندز » . وهناك على ذلك الطريق الملتوى الذى ينحدر إلى القرية يكاد المرء يرى « ريب العجوز » وقد ظهر مرة أخرى بعد مرور جيل فى نهاية غفوته الطويلة .

كما كانت هناك فى ميناء نيو أمستردام بعض السفن الأخرى الأقل بها ، وهى سفن المهربين الذين يجيئون بالبضائع من كل مكان فى العالم ، وكانوا يرفضون دفع الضرائب الحكومية على البضائع ، وكثيراً ما كانت ترسل حملات من الضباط المسلحين للقبض على سفن المهربين ، ولكن هؤلاء كانوا ينجحون دائماً فى الإفلات ببراعة ، وكانوا يخفون بضائعهم الثمينة فى أماكن خاصة على الشاطىء ،

عفریت جبل دوندبرج

فتأتى قوارب صغيرة وتلتقطها وتقوم بتوصيلها الى المدينة بعد حلول الظلام ، ولذا كان بالإمكان أن يشترى المرء فى نيو أمستردام أى شىء من الفراء والجواهر والأقمشة الصوفية الجيدة ، أو التوابل والشاى ، وذلك كله من المهربات التى يجلبها هؤلاء البحارة الشياطين .

وفى بعض الأحيان كانت الشركة التى تدير المستعمرة تقوم نفسها ببعض عمليات التهريب ، فقد كانت تستبدل بالفراء بعض البضائع الواردة من الخارج وكانت فراء القندس أكثرها ربحاً .

وفى فصل الصيف ، كان من المألوف لسكان القرى فى وادى النهر أن يشاهدوا الهنود وهم يقايضون الفراء بالبضائع ، وكثيراً ما كان هؤلاء الهنود يقدمون جلود القندس فى مقابل بعض القطائر والكعك الهولندى ، وكان الهنود يهيمون غراما بهذا الكعك لدرجة أنه لفترة معينة سنت قوانين تحرم بيعه للمحاربين من الهنود الحمر ولنسائهم ، لأن وجود عدد كبير منهم فى البلدة كان يمثل خطراً على سكانها .

وكانت العقود المصنوعة من الصدف تستخدم كعملة لدى جميع القبائل الهندية ، غير أن الهنود لم يستطيعوا فى وقت ما أن يصنعوا ما يكفيهم منها ، فما كان من الهولنديين إلا أن شرعوا فى عمل هذه العقود من أصداف أرجوانية وبيضاء . ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت مئات المنازل الريفية فى القرى والمزارع على طول مجرى النهر تسمى « حوانيت العقود الصدفية » ، وأتقنت النساء والأطفال صناعتها كما كان يتقنها الرجال .

وكان الهنود على امتداد وادى نهر الهدسون ـ قوما مسالمين ، إلا إذا وقعوا فريسة للغش ، أو عوملوا بقسوة ، فعندئذ كانوا يشنون الحرب فيحرقون المزارع ويقتلون المستوطنين ، وبعد سنوات عدة اضطر الهنود فى الجزء الأدنى من وادى النهر إلى الانتقال إلى بعض الغابات والأنهار البعيدة ، وعندما انتهى الحكم الهولندى لم يكن قد تبقى منهم سوى جماعة الايروكوا ، وكانوا شديدى البأس ، وما زالوا يعتقدون أن بمقدورهم الاحتفاظ بمناطق صيدهم بقوة السلاح .

٣ - الملك يرحب الزائر

وقف بيتر ستويفيسانت مثبتاً ساقه الخشبية فوق سطح الحصن المشرف على نيو أمستردام ، وشاهد من خلال منظاره المكبر الأسطول البريطانى رابضاً على بعد فى الميناء .

فى عام ١٦٦٤ ألقى الأسد البريطانى بكفه على مستعمرة بيتر ستويفيسانت ؛ فقد كان شارل الثانى ملك بريطانيا قد قرر أن تلك المستعمرة الهولندية ملك له ، وأنه منحها لأخيه جيمس دوق يورك ، وظل رجال ستويفيسانت طوال الصباح ينصتون إلى ساق بيتر الخشبية وهو يذرع سطح الحصن جيئة وذهاباً ، وعندما سمعوا وقع خطواته ، وهو يهبط درجات السلم ، كان لكل دقة منها رنين حزن ، وأدرك الجنود ما وراء ذلك .

كانت كونيكتيكت قد سقطت فى أيدى هؤلاء «اليانكى» الذين يتكلمون الإنجليزية ، وفى اليوم التالى وصل الانجليز إلى نيو أمستردام ، ثم غادروها ومعهم وثيقة التسليم التى كان ستويفيسانت قد وقعها ، وعندما أتى الضباط الإنجليز لتسلم مقاليد المستعمرة وجدوا ستويفيسانت فى انتظارهم وقد ارتدى زيه الرسمى الكامل

بما فى ذلك القبعة المدودة الأطراف والسيف ، وكان يعتقد أنه قد حصل على شروط حسنة لمواطنيه ؛ إذ نصت المعاهدة على السماح لهم بالاحتفاظ بممتلكاتهم ، واعترف لهم بحقوقهم التجارية مع هولندا .

وقام البريطانيون بتغيير اسم نيو أمستردام إلى نيويورك وبيفرويك إلى ألبانى ، كما أصبح نهر موريس نهر الهدسون ، واستمر الهولنديون يستخدمون لغتهم فى الحديث ، كما احتفظوا بعاداتهم وقصصهم الخرافية عن الأشباح والعفاريت .

وقد وضع واشنطون إرفينج - وهو كاتب من نيويورك - كثيراً من هذه القصص فى كتاباته ؛ فهو الذى ألف قصة « ريب فان وينكل » كما نشر أيضاً مجموعة القصص المسلية « تاريخ نيويورك » ، وتحكى إحدى القصص كيف أن مجرى هارلم أصبح يطلق عليه (سبوتين دويفل) فى المكان الذى يلتقى فيه بالنهر ، فبعد ما أصبح خطر الإنجليز يتهدد المدينة ، أرسل ستويفيسانت نافخ البوق أنتونى فان كورليراكى يثير سكان الريف ، وعندما وصل أنتونى إلى مجرى هارلم حيث تتدفق المياه فوق الصخور حاول أن يعبر النهر .

ويحكى الناس أنهم سمعوه ينفخ فى بوقه كما شاهدوا الشيطان وهو يخرج من بين الأمواج المزبدة ويمسك بشدة بساق أنتونى ، فنفخ الأخير بشدة فى بوقه ثم غاص فى المياه ولم يره أحد بعد ذلك قط ، ومنذ ذلك اليوم أطلق على هذا المكان اسم (سبوتين ديفل) وهى تعنى الشيطان النفاث - وهو المكان الذى يحيط به مجرى خليج هارلم بجزيرة مانهاتن من الشمال ويجعل منها جزيرة .

وترك بيتر ستويفيسانت بيته فى المدينة وأقام فى ضيعته ، وكانت تقع حيث يوجد شارع باوارى ؛ وعاش هناك حسب التقاليد الهولندية العريقة ، يأكل ويشرب مع جيرانه فى أيام الأعياد ، وفى المساء يجلس تحت شجرة الكمثرى بحديقته ليدخن الغليون ، وعندما مات ستويفيسانت دفن فى كنيسة أطلق عليها فيما بعد (القديس ماركس فى الباوارى ، أو الضيعة) .

يقول الأهالى إن الشيطان خرج من بين الأمواج وجذب أنتونى إلى القاع

ولمدة طويلة ظلت شجرة الكمثرى تلقى بظلها على بيت بيتر ، كما كان الأهالى الهولنديون يقولون إنهم كانوا يسمعون وقع قدمه الخشبية فى الليالى المظلمة ؛ إذ كانوا يعتقدون أن شبح بيتر ذى الساق الخشبية يأتى ليسهر على مصالح مواطنيه .

وسرعان ما كيف الهولنديون أنفسهم على الحكم البريطانى ؛ إذ أنهم اكتشفوا أن شكاياتهم لم تزد عن الفترة السابقة لقدومهم ، ونظراً لأن الأهالى كانوا يكرهون دفع الضرائب ، فإنهم قاموا بحل هذه المشكلة بنفس الطريقة التى كانت متبعة من قبل ؛ فاستمروا فى تهريب البضائع إلى داخل المستعمرة وتهريب الفراء وجلود القندس إلى خارجها .

ولشب صراع كبير حول ملكية جزيرة ستاتن ، أكبر جزر الميناء ، فقد ادعت كل من نيويورك ونيوجيرسى ملكيتها لهذه الجزيرة ، وتقول الأساطير إن دوق يورك حسم هذا الخلاف بقوله : « إن الجزيرة التى يمكن الطواف حولها بحراً فى أربع وعشرين ساعة تكون ملكا لى » ولا نعلم كيف توصل شقيق الملك إلى هذا القرار ، ولكن أحداً لم يرغب فى معارضته .

ثم أرسل فى طلب كابتن (بيلوب) وأمره بالطواف حول الجزيرة وعاد بيلوب إلى سفينته « بنتلى » ووضع على سطحها صفوفا من البراميل الفارغة لكى تساعد فى دفع السفينة إذا هب النسيم ، وتجمع الكثيرون على شاطىء النهر المقابل للميناء ليشاهدوا السفينة « بنتلى » عند إقلاعها مع مطلع الشمس ، وانسابت السفينة بخفة حتى توارت عن الأنظار خلف التلال الخضراء لجزيرة ستاتن ، وقبل انقضاء فترة الأربع والعشرين الساعة بقليل كانت السفينة « بنتلى » تدور حول المنحنى الأخير وتدخل الميناء ، وأصبحت جزيرة ستاتن جزءا من ولاية نيويورك على الرغم من أنها أقرب إلى ولاية نيوجيرسى .

وفى تلك الأيام كانت هناك مناشير كثيرة للخشب على جوانب الروافد التى تصب فى نهر هدسون شمالى الهايلاندز ، وفى فصل الربيع كانت هذه المناشير تلقى فى النهر بأعداد لاحصر لها من جذوع الأشجار التى كانت تطفو على النهر وتجرفها المياه تجاه المصب ، وكانت تلك الجذوع يشد بعضها إلى بعض لتتكون منها أطواف ضخمة ، وكان الحطابون وأسرهم يبنون أكواخا صغيرة على هذه الأطواف ويرحلون مع أخشابهم الطافية على مياه الهدسون يوجهونها فى سيرها حتى يصلوا بها فى النهاية إلى نيويورك ، ومن هناك يستقلون إحدى سفن النهر البطيئة لتعود بهم إلى ديارهم مرة أخرى فى أعالى النهر ، وظل قباطنة السفن سادة النهر وكانوا يأخذون الحاصلات والمسافرين إلى المدينة ويعودون مرة أخرى ومعهم النقود أو المشتريات المطلوبة .

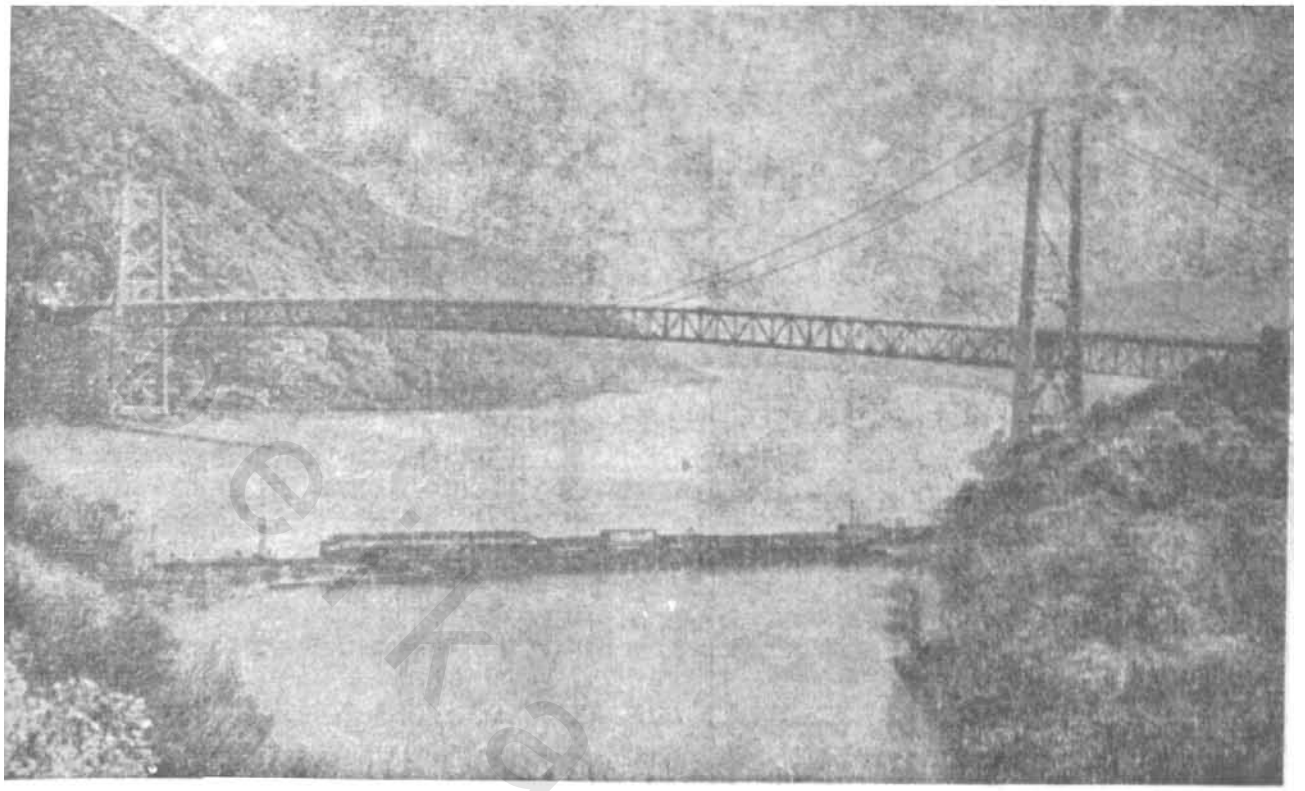

تتبع الطرق والسكك الحديدية ضفاف النهر

وكان المسافرون خلال رحلتهم النهرية يشاهدون قصور «الباترونات» وملاك الأراضى من الانجليز وهى تشمخ فوق كثير من القمم العالية فوق النهر ، وعلى طول نهر هدسون أستقر كثير من العائلات الانجليزية الثرية بين الهولنديين وانتشر استعمال اللغة الانجليزية ، وكانت قصور ملاك الأراضى تبنى على غرار القصور الملكية فى فارس وألمانيا وإيطاليا واليونان ، وكانت القصور جميعها محاطة بمساحات شاسعة من الحدائق ، كما استورد بعض الملاك أطلالا من أوربا لإضفاء صبغة القدم على نهر هدسون .

وطوال مائتى عام لم يتمكن المزارعون المستأجرون من امتلاك الأراضى ، وكثيراً ما كانوا يثورون على هذا الوضع فيقمع الملاك ثورتهم ليعود المزارعون إلى انتفاضة أخرى بعد سنوات قليلة .

وفى أحد الأيام امتطى مزارع ايرلندى شاب اسمه « برندرجاست » صهوة جواده ومعه زوجته ، وأخذا يناديان فى الفلاحين فى وستشستر بأن يهبوا معهما فى ثورة ، فترك الفلاحون والمستأجرون أعمالهم وساروا خلفهما ، وتوجهوا أول الأمر إلى بيت قاض كان قد طرد كثيراً من الفلاحين من بيوتهم لأنهم لم يدفعوا الإيجار إلى الباترون ، وألقوا بالقاضى فى بركة قد أعدها لتربية البط .

وأخذوا بعد ذلك يدخلون مزرعة تلو أخرى فيطردون المزارعين الجدد الذين حلوا محل المطرودين . وفى النهاية قرر « برندرجاست » أن يقود رجاله إلى مدينة نيويورك وأخذوا يصيحون فى مسيرتهم : (نحن رجال أحرار — أعطونا حقوقنا) . وفى المدينة قام الجنرال البريطانى جيج باستدعاء كل جندى واختبأ الأهالى فى منازلهم خوفا على أرواحهم ، فقد كانوا يعلمون أن « برندرجاست » كان على رأس أكثر من ألف مزارع غاضب . كما كانوا يعلمون أن هناك أعدادا أخرى من الفلاحين تنضم إلى الثورة فى أعالى النهر .

ثم تلقى « برندرجاست » رسالة فحواها أن جنرال « جيج » سيرسل كتيبة من الجنود المدربين تدريبا خاصاً لقمع ثورة الريف . وكان الفلاحون يعرفون أنه ليس بإمكانهم الوقوف أمام الجنود المدربين تدريبا خاصاً ، فانسحب أغلب الرجال وعادوا إلى ديارهم ولم يتبق مع « برندرجاست وزوجته » سوى ٥٠٠ رجل .

وعندما استسلم « برندرجاست » ذهبت زوجته إلى الحاكم لتطلب الرحمة والعفو عن زوجها . فعفى ملك انجلترا عنه نزولا على رغبة الحاكم .

وانتهت الثورة ولكن مقاليد الأمور كانت لا تزال فى يد « الباترونات » . وفى « تارى تاون » كان الباترون فردريك فيليبس يعيش ببذخ فى قلعته الضخمة التى كانت بمثابة عالم مستقل بذاته .

جزء من قلعة فيليبس كما تبدو اليوم

فكانت تحوى الشون والطواحين والمخازن والمساكن وكل شيء تحتاج إليه مملكة صغيرة .

ولا تزال قلعة فيليبس قائمة فى « تارى تاون » ، وقد أعيد بناؤها لكى يراها الزوار فى نفس الصورة التى كانت موجودة عليها فى عهد الباترون .

وفى أواخر القرن الثامن عشر أخذت مدينة نيويورك تنمو وتتسع متجاوزة حدود البلدة الهولندية القديمة كثيرة الحركة صاخبة الضوضاء وبخاصة فى منطقة أرصفتها .

وازدحم الميناء بالسفن ، وكان بعضها يقابل بالترحاب ، والبعض الآخر غير مرغوب فيه ؛ إذ كانت سفن القراصنة لا تزال تغزو نهر الهدسون كما فى الأيام الأولى . وكان أغلب القراصنة يتخذون قواعد بالقرب من شواطىء فلوريدا وكارولينا أو نيوانجلند . ولكنهم كانوا كثيرا ما ينفذون إلى نيويورك ويخرجون منها . بل إن بعضهم كانوا يسيرون جيئة وذهابا فى طرقات المدينة وكأنها ملك لهم .

وكان أشهر القراصنة على الإطلاق الكابتن (وليام كيد) الجسور، وكان يأتى إلى المدينة كأى مواطن عادى دون أن يحاول إخفاء شخصيته . وكان « كيد » فى بداية الأمر مكلفا بالقبض على سفن القراصنة ، ولكن لم ينقض وقت طويل حتى أصبح « كيد » نفسه مثار رعب المستعمرات الاسبانية . وكان يملك منزلا فى « وول ستريت » حيث كانت تعيش زوجته محاطة بالاحترام والتبجيل .

وفى النهاية تم القبض على الكابتن « كيد » فى مدينة نيويورك ، وأرسل إلى انجلترا حيث حوكم ثم أعدم شنقا . وبعد مدة كتبت أغنية شعبية عن هذا القرصان تقول :

كان اسمى الكابتن كيد عندما أقلعت ... عندما أقلعت .
كان اسمى الكابتن كيد عندما أقلعت .
كان اسمى الكابتن كيد .
وأوامر الرب قد خالفت ...
ويالهول ما فعلت عندما أقلعت .

ومن الأساطير الشائعة على ضفاف نهر هدسون أسطورة القرصان الجسور . وقد ظل الباحثون عن الكنوز طيلة قرنين ينقبون بحثا عن ذهب القرصان دون جدوى . ويقول البعض إن الروح الشريرة لهذا القرصان المتعطش للدماء تقف شاهرة سيفها لحراسة الكنز . كما يقال أيضاً إن مجرد نظرة واحدة من هذه الروح الشريرة تكفى لأن تفقد أى باحث عن الكنز إبصاره مدى الحياة .

وفى عام ١٦٩٩ ألقت السفن الحربية الانجليزية مراسيها عند « ساندى هوك » خارج ميناء نيويورك واعترضت سفن القراصنة وظهر الميناء فيها . ومع ذلك فقد ظلت سفن القراصنة لمدة مائة عام أخرى تختبىء فى الجروف المنعزلة والخلجان على طول الشاطىء ، فكانوا ينتظرون وينقضون على السفن المتجهة إلى هدسون . وعلى الرغم من أن سكان المستعمرة كانوا يخشون القراصنة فإن ضحايا القرصنة كانوا عددا قليلا . وبقدوم عام ١٧٥٠ كان قلق الأمريكيين يتزايد تجاه حكامهم الانجليز ، فقد شعر الكثيرون بأنهم لايعاملون بعدل من بلدهم الأم وملكها .

٤ - الحرب تشتعل على ضفاف النهر

الضرائب : رسوم التمغة . ضرائب على الشاى . ضرائب . على البضائع إلى وادى نهر الهدسون .. كلها ضرائب غير عادلة . وأعلن سكان المستعمرة المستوردة عن سخطهم بقولهم :

« إننا لم نشترك فى وضع قوانين انجلترا ، كما أننا لا نمثل فى الحكومة . إن الضرائب الباهظة تعوقنا عن التخلص من الفقر » . واجتمع الناس فى القرى والمدن ليبحثوا أمر الضرائب وليختلفوا فيما بينهم . فإذا ما التقى فلاح بآخر فى طريق ريفى لم يكن لهم نقاش غير ذلك . وكان بعض سكان المستعمرة يريدون الانفصال عن انجلترا . وهؤلاء أطلق عليهم الوطنيون أو سكان القارة . أما البعض الآخر فكان لايزال موالياً لإنجلترا . وهؤلاء أطلق عليهم الموالون أو المحافظون .

ودبَّ الخلاف أيضاً بين سكان نيويورك ، وحدث شغب فى شوارع المدينة عام ١٧٧٠ ، وتوجهت شرذمة من الجنود البريطانيين ذوى السترات الحمراء إلى (جولدن هيل) لتفريق اجتماع من أطلقوا على أنفسهم « أبناء الحرية » ، واستطاع

الجنود - وهم شاهرون لسيوفهم - أن يشتتوا ذلك الجمع الغاضب من سكان المستعمرة الذين كانوا بدورهم يقذفون الجنود بالحجارة .

وفى عام ١٧٧٤ أقام الوطنيون فى نيويورك « حفل شاى » خاصاً بهم . فقد تدافعوا على الصقالات الممتدة بين الشاطىء وبين السفينة « لندن » الراسية فى نهر « نورث » ووجدوا السفينة محملة بصناديق الشاى فأخرجوها إلى السطح ثم ألقوا بها إلى المياه . وبينما كان الشاى يطفو على النهر كان الوطنيون يرددون تحديهم لقوانين الضرائب الإنجليزية . وعندما بلغت سكان وادى الهدسون أخبار من بوستون عن معركتى (لكسينجتون) و (كونكورد) عام ١٧٧٥ أدرك الناس أنه يجب عليهم الاستعداد للحرب. لقد كان نهر الهدسون ذا أهمية كبيرة للبريطانيين، فإذا هم استطاعوا الاحتفاظ به أمكنهم عزل المستعمرات الشمالية عن تلك التى تقع فى الجنوب ، وكان نهر الهدسون من الأهمية العظمى لكلا الطرفين ، بحيث أطلق عليه (مفتاح الثورة) . ولم ينقض وقت طويل حتى كان الإنجليز قد أغلقوا نهر الهدسون فى الشمال فاستولوا على حصن « تيكوندروجا » على بحيرة « شامبلين » ، وكانت علاقاتهم طيبة مع قبائل الايراكوا شديدة البأس ، ودخل الأسطول البريطانى ميناء نيويورك عام ١٧٧٦ وألقى مراسيه تحت تلال الباليسيدز الشديدة الانحدار ، واتخذ الجنود مواقعهم فى جزيرة ستاتن فقابلهم المحافظون بالتهليل والترحيب ، فقد منحهم وجود الجنود شعوراً بالطمأنينة ، إذ أن جنرال واشنطون ومن خلفه الوطنيون ، كانوا يتخذون مواقعهم فى جزيرة لونج أيلاند .

وعلى طول وادى النهر ، هجر المزارعون الوطنيون بيوتهم وأراضيهم لكى يلتحقوا بجيش (جورج كلينتون) الذى كان هو نفسه ابن أحد المزارعين ، وكان ضخم الجسم . وكان الجيش الذى التف حول كلينتون ينقصه التدريب والنظام ولكن عزيمة رجاله كانت وافية ، وقد عمد كلينتون إلى تحصين الجزر فى إقليم الهايلاندز وتقوية الحصون الخشبية الصغيرة التى كانت قائمة بالفعل على ضفاف النهر .

وشهد نهر الهدسون خلال شهر أغسطس من عام ١٧٧٦ كثيراً من الحوادث . فقد كان رجال البحر الأمريكيون يصنعون سفناً خاصة للحريق لمهاجمة الأسطول

البريطانى عندما يصعد فى النهر ، وكانت الخطة هى إشعال النيران فى هذه السفن ، ثم الاندفاع بها لتلتحم بسفن العدو فتشعل فيها النيران . وكان البحارة على ظهر هذه السفن يعلمون جيداً أن أية رحلة من هذا النوع قد تكون رحلتهم الأخيرة . وقد أخفق هذا الهجوم كمعركة متكاملة ، ولكن إحدى سفن الحريق هذه نجحت فى تدمير السفينة الانجليزية (كارلوتا) فى التابان زى ، وقد استشهد فى هذا الهجوم ،الضابط الشجاع توماس ، الذى كان حاملا العلم . وقد ألهب استشهاد توماس حماسة الأمريكيين من منطقة الميناء حتى سفوح جبال الأديروندك .

وتحت ستر الظلام ، ليلة السابع عشر من أغسطس ، نزلت جماعة صغيرة من الرجال على جزيرة (جافرنرز) الواقعة عند طرف جزيرة مانهاتان ، وكانوا يجهزون لأغرب هجوم شهدته هذه الحرب .

وكانت هذه الجماعة بقيادة (ديفيد بوشنيل) الذى كان يشرف على تدشين سفينة بحرية اخترعها وسماها « تيرتل » ، أى السلحفاة البحرية ، وكان (ازرا لى) الجاويش فى الجيش الاتحادى هو الذى سيقوم بقيادة هذه السفينة .

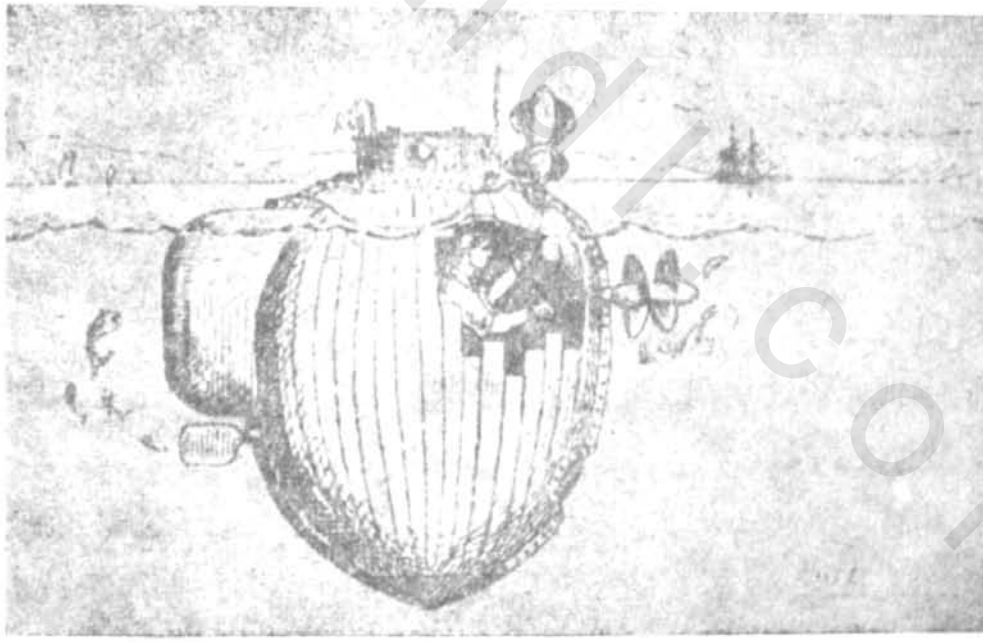

يبين هذا الرسم القديم منظراً تحت الماء لغواصة « بوشنيل »

نرى فى هذا الرسم الغواصة «تيرتل» وهى تقترب من السفينة الإنجليزية «إيجل»

وكانت « التيرتل » أول نموذج عمل للغواصات فى التاريخ . وقد وصفها بوشنيل بأنها قوقعة ضخمة ترتدى قبعة . وبعد أن دلف (ازرا لى) من الفتحة الضيقة فى أعلى منتصف الجسم الخشبى للغواصة أغلق خلفه الغطاء المحكم ضد المياه . وبعد ذلك سحبت « التيرتل » بواسطة أحد قوارب صيد الحيتان إلى مياه الميناء المتلاطمة إلى أقرب مسافة ممكنة من سفن الأسطول البريطانى .

ثم غطست « التيرتل » تحت سطح الماء . وكان بإمكان (لى) أن يوجهها بسهولة إلى الأمام أو إلى الخلف بسرعة ثلاثة أميال فى الساعة ، كما كان بوسعه أن يصعد بها إلى السطح عندما يريد . وكانت « التيرتل » تسحب خلفها سلاحا بيضى الشكل محشوا بالبارود .

وأخذ « لى » فى الاقتراب من الأسطول ، واستعد لإطلاق سلاحه . ولكن أحد المراقبين على السفينة الإنجليزية (إيجل) رأى فى انعكاس ضوء القمر على سطح الماء شيئاً مستديراً غريب الشكل . فأعطى إشارة الخطر ، فاستدار (لى) بسفينته فى اتجاه جزيرة مانهاتان حيث أسرت سفينته .

ومع أن الاتحاديين لم يستفيدوا شيئاً من هذه الغواصة إلا أن الجنرال واشنطون قال على هذا الاختراع إنه محاولة عبقرية .

وترك شهر أغسطس هذا ذكرى لا تنمحى من ذهن هذا الجنرال الطويل القامة الذى كان يقود الثوار ، فقد هزمه الإنجليز فى هذا الشهر فى معركة لونج أيلاند ؛ لأن رجاله كانوا أقل عدداً وتدريباً .

وكان على واشنطون أن ينسحب إلى نيويورك ثم يسير بجيشه إلى معركة مرتفعات (هارلم) . وفى معركة (هوايت بلينز) أتى جنرال كلينتون بجيشه الذى يتكون من المزارعين من وادى الهدسون وانضم إلى واشنطون . ولكن الاتحاديين أجبروا على التقهقر ، وانسحب جيش واشنطون عبر جزيرة مانهاتان . ثم أخذ رجاله واتجه إلى « فورت لى » وهو حصن مشيد على قمة تلال الباليسيدز فى نيوجيرسى . وهناك قامت قواته بتعزيز الحصن بأسرع ما يمكنها .

وعلى الصفحة الأخرى للنهر المقابلة (لفورت لى) كان هناك حصن منيع يسمى (فورت واشنطون) على جزيرة مانهاتان ، وكانت الحفنة الصغيرة من الرجال فى هذا الحصن يعدون العدة لصد هجوم البريطانيين ، وكان معهم بعض من النساء اللاتى رفضن أن يتركن أزواجهن وحدهم على خط النار . وكانت (مولى كوربين) إحدى هؤلاء النساء ، قد وقفت بجانب زوجها (جون) وهو يطلق مدفعه بإصرار ليمنع تقدم العدو إلى أعلى التل .

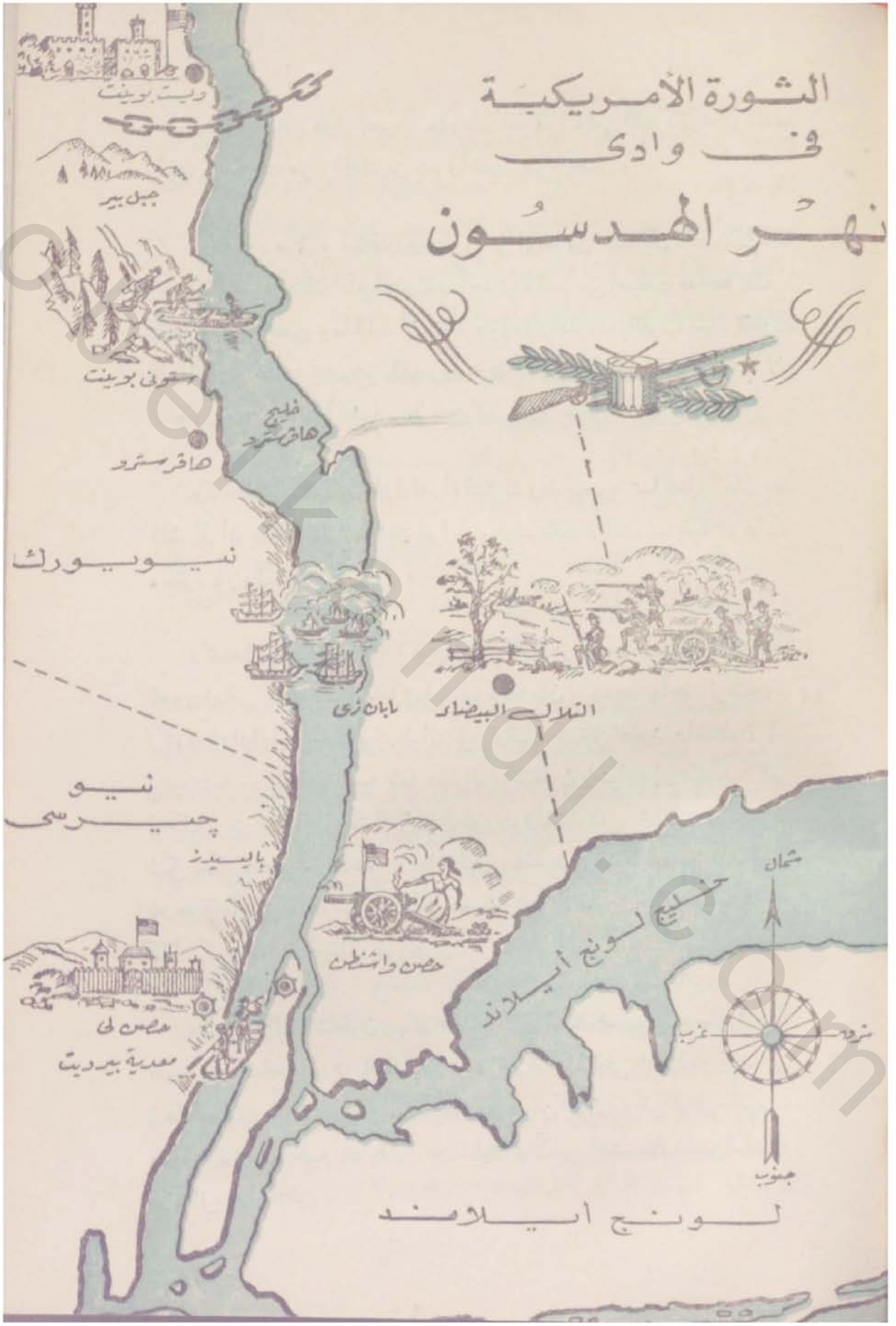
الثورة الأمريكية
في وادى
نهر الهدسون
ويست بوينت
جبل بير
حصون بوينت
خليج هاف مسترد
هاف مسترد
نيويورك
بابان زى
التلال البيضاء
نيو
چيرسى
باليسيدز
حصن واشنطن
حصن لى
معدية بيرديت
شمال
خليج لونج أيلاند
شرق
غرب
جنوب
لونج أيلاند

وفجأة سمعت (مولى) صرخة مدوية . لقد قتل المدفعى الذى كان يحشو المدفع بالجون ، فانتزعت مولى المدك من يده وأخذت تقوم بعمله .

ووقفت « مولى » تساعد زوجها ، على الرغم من علمها بأن الحصن لا يمكنه الصمود أكثر من ذلك أمام العدو الذى أخذ فى التقدم حتى أصبحت مدافعه تقذف بقنابلها فوق الحصن وما لبثت أن انفجرت إحدى القذائف بالقرب منها . فقفزت إلى المدفع وأخذت تحشوه وتطلقه وحدها عدة مرات إلى أن شعرت فجأة بآلام لا تطاق فسقطت مغشياً عليها ، على حين كان العدو يدخل الحصن مظفراً .

وكانت مولى كوربين أول امرأة تشترك فى الحرب ، مما دعا الأهالى بعد ذلك إلى أن يطلقوا عليها « كابتن مولى » . وقد ظلت ترتدى — بقية عمرها — « سترة » رجال المدفعية .

وتحت الجرف المقام عليه (فورت لى) كانت قوارب « برديت » المستخدمة للعبور فى النهر تلعب دوراً هاماً فى الحرب ؛ فقد كان « برديت » أحد الوطنيين ، وكانت زوارقه العديدة تتحرك طوال الليل والنهار فى نقل جنود واشنطون إلى (فورت لى) . كما قام بنفسه بنقل الجنرال واشنطون وضباطه إلى منتصف النهر ليتمكنوا من مراقبة المعركة الدائرة فى فورت واشنطون . ثم عاد بهم مسرعاً لكى يتمكنوا من إعداد خطة عاجلة للتقهقر ، فقد بدا واضحاً للجميع أن الجيش البريطانى الأكثر عدداً سوف يتمكن بعد قليل من ارتقاء مرتفعات الباليسيدز ، كما أدركوا تعذر الاحتفاظ بفورت لى .

وقاد الجنرال واشنطون رجاله المجهدين الذين ثبطت همتهم ، وساروا صفا طويلا فى السفح الغربى للباليسيدز ، واخترقوا المراعى المسلحة قاصدين (هاكنساك) ، وقد حملوا معهم ما أمكنهم جمعه من المؤن وتركوا الباقى خلفهم . وفى الطريق كان عليهم أن يقفوا بين الحين والآخر لصد مناوشات الكشافة البريطانيين والمحافظين .

وكان من بين الوطنيين رجل يدعى (توماس بين) ، ومع أنه لم يكن جنديا، إلا أنه كان كاتبا بارعا ، وقد أشعلت كتاباته نار الثورة فى أرجاء المستعمرات الثلاث عشرة . وفى يوم ما ، بينما كان يسير على طريق غير مرصوف جال فى ذهنه موضوع كتيب جديد . وعندما حل الظلام جلس بجوار موقد النار فى المعسكر واتخذ من طبلة نضداً له . وسمى هذا الكتيب (الأزمة) ، وقد استهل هذا الكتيب بكلمات أصبحت خالدة فى أمريكا :

« إن هذه الأوقات العصيبة هى التى تظهر معدن الإنسان . وقد يعمد جنود الصيف وأولئك الذين ترتبط وطنيتهم بسطوع الشمس[1] إلى التخلى عن خدمة بلادهم فى أثناء هذه الأزمة . ولكن الذين سيصمدون الآن يستحقون حب كل مواطن وشكره — رجلا كان أو امرأة .

وترك رجال واشنطون نهر الهدسون واتخذوا من (فالى فورج) بولاية بنسلفانيا مقراً شتوياً لهم . وبالرغم من ذلك استمرت الحرب فى وادى نهر الجبال العظيم .

وكانت قد أقيمت مسابك للحديد قبل ذلك بسنوات فى أماكن متفرقة من نيوجيرسى . وفى أحد هذه المسابك كان الحدادون يعملون بأقصى طاقاتهم للانتهاء من صنع سلسلة حديدية ضخمة ، وفى إحدى الليالى نقلت هذه السلسلة - بعد أن جزئت إلى قطع عديدة — على عربات إلى ضفة نهر الهدسون حيث جمعت حلقاتها الضخمة فى سرية تامة . ثم سحبت عبر النهر وثبتت تحت الماء جنوبى (وست بوينت) .

وتنفس الوطنيون الصعداء بعد أن أتموا مهمتهم : « من الآن فصاعدا لن تستطيع السفن الحربية التابعة للتاج البريطانى أن تعبر هذه السلسلة إلى أعلى النهر » .

---

(١) كان الشتاء على الأبواب ، وفى كلام الكاتب إشارة إلى أن بعض المواطنين كانوا يعزفون عن الحرب فى هذا الفصل ، وهو يحاول استثارة هممهم حتى لا يتقاعسوا عن الاشتراك فى النضال ، حتى ولو كان الجو قاسى البرودة — (المراجع) .

وتعد (وستبوينت) من أكثر الأماكن الاستراتيجية أهمية على النهر ، وكانت أحسن موقع يمكن اختياره لإقامة حصن وقد ظل الإنجليز لمدة عامين بعد سقوط (فورت لى) يسيطرون على جانبي وادى الهدسون الأدنى ، فى حين كانت المناطق شمال خليج هارفسترو والتابان زى لا تزال فى حوزة الأمريكيين .

وقد قام الأمريكيون بتشييد معقل لهم فى وستبوينت بإشراف (تاديوس كوسيوسكو) البناء البولندى الشهير الذى كان يؤمن بالحرية . ولم ينقض عام على بنائه حتى أصبح مقر القيادة للجنرال واشنطون .

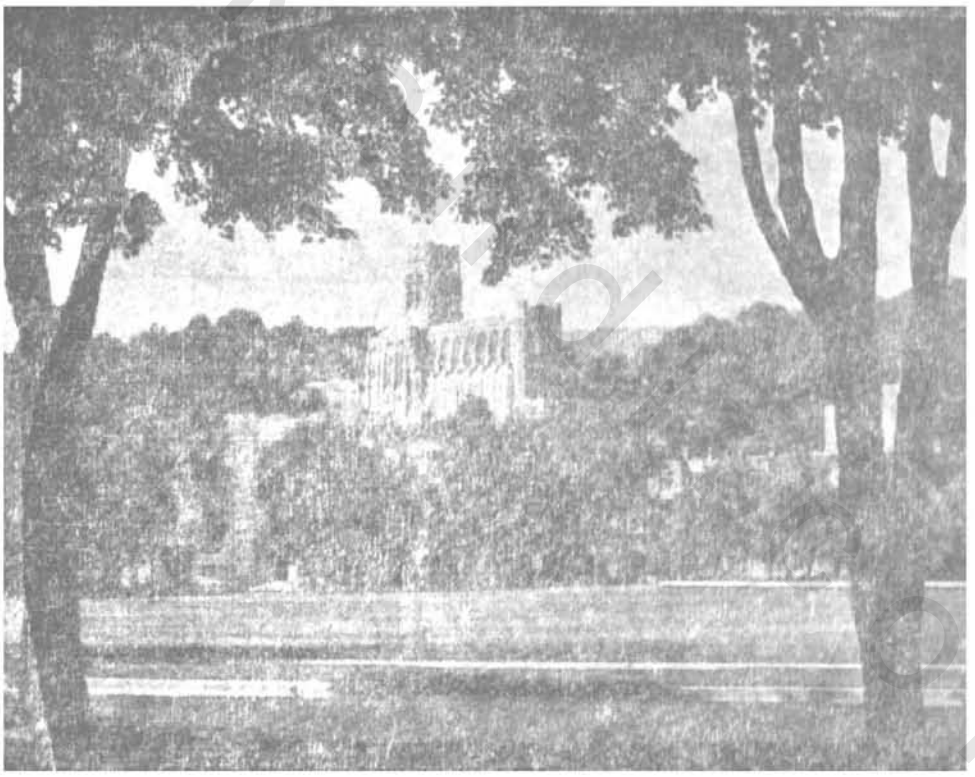

الأكاديمية الحربية فى الولايات المتحدة فى وست بوينت كما تبدو اليوم

طوال هذه المدة كان جورج كلينتون لا يزال فى أعالى النهر ، وكان يستخدم رجاله فى بناء الحصون والدفاع عن الوادى . ولسوء حظ المحافظين كان بعض من كبار ذوى السلطة والنفوذ فى وادى الهدسون يقدمون يد المساعدة إلى الحركة الاتحادية ، وكان من بينهم روبرت ليفينجستون ، وفان رنسيلير ، وبيتر شولر الذى لم يكتف بإمدادهم بالمؤن والمال ، بل قام بقيادة جنوده من ألبانى لكى تنضم إلى جيش واشنطون .

ولكى يحقق البريطانيون السيطرة على وادى نهر الهدسون بالكامل فقد تم إرسال قوات من الجنود النظاميين والمرتزقة الحمراء بقيادة الجنرال « برجوين » إلى الجزء الأعلى من النهر ، وهكذا أصبح وادى النهر يمر بأحرج اللحظات منذ بداية الحرب . وفى مدينة نيويورك أيضاً كانت القوات البريطانية تعد العدة لغزو الجزء الأعلى من النهر .

وحاول الوطنيون أن يوقفوا جيش « برجوين » فى الشمال ، وفعلا قام الأمريكيون بقيادة الجنرال « جيتس » بالاشتباك مع قوات برجوين من الإنجليز والمرتزقة والهنود الايروكوا فى ساراتوجا فى الجزء الشمالى من ولاية نيويورك . ودارت بينهم معركة عنيفة تمكن فيها الاتحاديون من هزيمة البريطانيين الذين أعلنوا استسلامهم فى السابع عشر من أكتوبر عام ١٧٧٧ ، وكان بطل معركة « ساراتوجا » هو « بنديكت أرنولد » الذى فقد ساقه فى ميدان المعركة .

وأصبحت معركة ساراتوجا نقطة تحول هامة فى الحرب الدائرة على ضفاف نهر الهدسون ، فأقام الوطنيون فى كل مكان من نيوانجلند حتى ولاية جورجيا الاحتفالات تعبيراً عن غبطتهم لهذا الانتصار ، وأدركوا أنه مادام البريطانيون لايستطيعون فرض سيطرتهم على الجزء الشمالى ، إذن فمن الممكن إخراجهم من الجزء الجنوبى من النهر ، كما أنهم لن يتمكنوا من الملاحة فى النهر إلى أبعد من السلسلة الحديدية الضخمة التى وضعت لمنع سفنهم من صعود النهر .

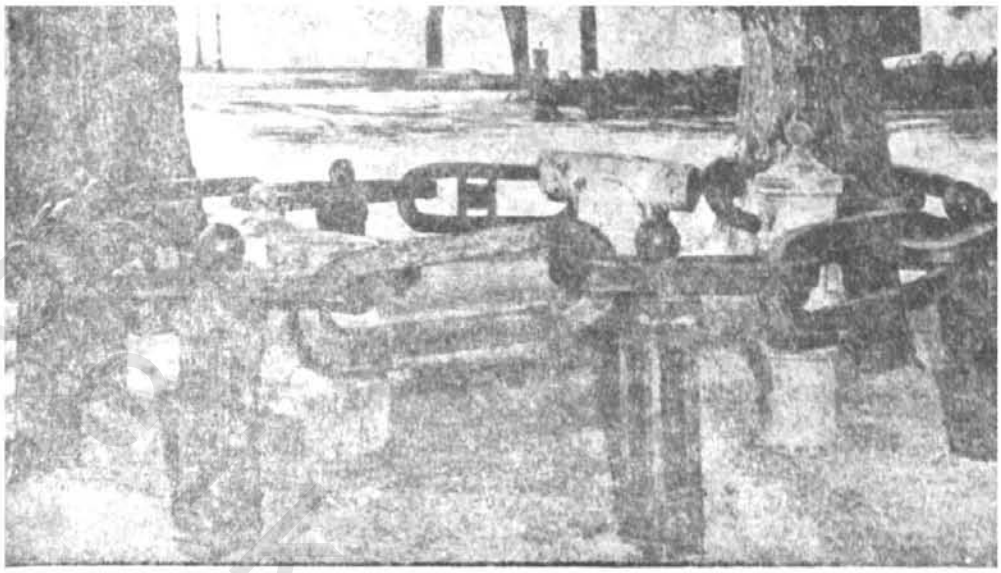

جزء من سلسلة واشنطون الضخمة معروضة فى ويست بوينت

فقد كان الاعتقاد السائد أن هذه السلسلة ستشكل عائقاً منيعاً أمام الأسطول البريطانى ، ولكن الذى حدث هو أنه عندما أقلع الأسطول البريطانى متجهاً إلى الشمال تردد على أسماع الوطنيين فى المنطقة صوت المطارق وهى تدق الحديد . فقد تمكن بحارة الأسطول من رفع السلسلة من طريقهم ، وبهذا أصبح النهر مفتوحا لهم.

كان أمام الأمريكيين مهمة صعبة ، فقد كان عليهم محاربة المحافظين وحلفائهم من الهنود الإيروكوا ، علاوة على البريطانيين .

وفى عام ١٧٧٨ أخذت تتردد فى جهات الوادى أنباء عن المذابح التى يقوم بها الهنود ؛ فقد كان الهنود ومعهم المحافظون يقومون بإشعال الحرائق ، وقتل الأبرياء ، وتدمير ما يقع تحت أيديهم على طوال نهر (موهوك)، وكان المتوقع ألا ينقضى وقت طويل حتى يصلوا إلى وادى الهدسون وينشروا الرعب والدمار بين أرجائه، فأرسل الجنرال واشنطون جيشا ليوقف الإيروكوا عند حدهم .وفعلا عم السرور سكان الوادى فى العام التالى ، إذ تم تدمير المدن الهندية ، وأصبح الإيروكوا عاجزين عن مساندة البريطانيين فى حربهم .

وبحلول عام ١٧٧٩ كان الأمريكيون متجهمين، وقد حل بهم الإعياء، وانتشر بينهم الجوع لقلة الطعام . ولكنهم رغم ذلك لم يفقدوا روحهم المرحة . ومن بين الحوادث المضحكة التى جرت على النهر هذه المعركة التى وقعت عندما نزلت القوات البريطانية إلى (ستونى بوينت)، وتقدمت تجاه الحصنين الأمريكيين القائمين هناك على الشمال من الضفة الغربية للنهر ، ولم يكن الجنرال كلينتون وهو قائد أحد هذين الحصنين يعتقـــد أن بإمكان البريطانيين الاستيلاء بسهولة على حصن مونتجومرى وحصن كلينتون ، مع أن عدد الجنود بهما كان قليلا . ومع ذلك أمكن للجنود البريطانيين عند وصولهم (ستونى بوينت) أن يتقدموا سريعاً إلى أماكن الحصنين وذلك بفضل فلاح من المحافظين قام بإرشادهم فى دروب المنطقة . ورغم استبسال الاتحاديين فى المعركة الضارية التى وقعت إلاأنها لم تستمر طويلا . واضطر الجنرال كلينتون — الذى كان قد انتخب لتوه كمحافظ لولاية

الجنرال انتونى وين يهاجم البريطانيين فى ستونى بوينت

نيويورك — إلى أن يصدر أمره بالانسحاب بسرعة . فاختبأ بعض رجاله فى الغابات ، وهرع الباقون إلى قوارب صغيرة كانت تنتظرهم فى النهر . وانزلق الجنرال بسرعة كبيرة على حافة جرف ، وأخذ الناس على طول الوادى يتناقلون هذه القصة وهم يضحكون ، فقد تسبب انزلاق الجنرال على الجرف أن تمزق سرواله تماماً من الخلف .

وانتقلت الحرب بعيداً عن وادى الهدسون ، ومع ذلك ظلت مدينة نيويورك تحت سيطرة العدو ، وبقى أسطول بريطانى فى نهر (نورث) . ولكن (وست بوينت) كانت لاتزال فى أيدى الأمريكيين .

وفى ليلة حالكة السواد من عام ١٧٨٠ تحركت السفينة الحربية الإنجليزية (فالتشر) بهدوء فوق مياه النهر ، وأنزلت على الشاطىء رجلا نحيلا يرتدى معطفاً على بعد عدة أميال جنوب (وست بوينت) ، وقابله رجل غامض آخر فتصافحا وجلسا يتحدثان حتى الفجر ، والسفينة — (فالتشر) تربض فى صمت مطبق .

وعندما بزغ النهار كان الميجور البريطانى (جون آندريه) قد حصل على خطط كاملة لجميع تحصينات (وست بوينت) ، فقد أعطاها له الجنرال (بنديكت آرنولد) البطل الذى أشاد به الأمريكيون فى معركة ساراتوجا .

وبينما كان الميجور أندريه يهم بركوب قارب صغير أطلق الأمريكيون النيران من الضفة الأخرى على السفينة (فالتشر) ، فلم تنتظر السفينة عودة الميجور ، بل رفعت مرساها وأقلعت من فورها تجاه الجنوب . ولم يكن بإمكان أندريه أن يفعل أكثر من الاختباء فى منزل قريب لأحد المحافظين .

أرنولد الذى يمسك الورق فى يده يقترح أن يخبئها أندريه فى حذائه

وعاد الجنرل أرنولد سراً إلى وست بوينت . وبعد حلول الظلام تمكن أندريه من عبور النهر والحصول على حصان . وعندما اقترب إلى بلدة « تارى تاون » ظن أنه قد أصبح فى مأمن . ولكن ثلاثة جنود اتحاديين نادوه بالقرب من مقابر (سليبى هولو) ، وعندما فتشوه وجدوا معه خرائط وست بوينت مخبأة فى حذائه . فأخذتهم المفاجأة وكادوا لا يصدقون أعينهم .

وحوكم الميجور (جون أندريه) وأدين بتهمة التجسس ، وقد تم إعدامه شنقاً في تاران بولاية نيوجيرسي . ولكن بنديكت أرنولد تمكن من الفرار على ظهر (الفالتشر) وأصبح اسمه رمزاً للخيانة عند الأمريكيين منذ هذا التاريخ .

ها قد أوشك القتال على ضفاف النهر أن ينتهي . وعندما استسلم (كورنواليس) في يورك تاون بولاية فرجينيا عم الفرح والسرور ، وأطلقت الألعاب النارية احتفالا بهذه المناسبة السعيدة ، وأخذ الوطنيون يغنون ويرقصون كالهنود وانطلق الفرسان إلى الريف لينشروا هذا الخبر السار .

الجنرال واشنطون يودع ضباطه في حانة فرونسس

حانة فرولسس كما تبدو اليوم

وخلال الفترة التى قضاها رجال السياسة فى التفاوض لإقرار السلام — ظل الجنرال واشنطون وهيئة قيادته على ضفة الهدسون قريباً من نيوبره ، وفى نوفمبر عام ١٧٨٣ أبحر البريطانيون إلى غير رجعة من مدينة نيويورك . وقاد واشنطون قواته إلى جزيرة مانهاتان .

وفى حانة (فرولسس) ألقى كلمة الوداع على جيشه وضباطه من حوله . وعندما ابتعد قاربه ببطء من شاطىء نيويورك أخـــذت الجموع المحتشدة تهتف بتحيته ، ثم عبر تلك المساحة الشاسعة من مياه نهر هدسون الرمادية لكى يعود إلى موطنه بولاية فرجينيا . وأخيراً وصل قاربه إلى أسفل الجروف العالية بولاية نيوجيرسى ، حيث تطل المدن الهولندية على مجرى النهر الذى شهد أحداث الثورة الأمريكية .

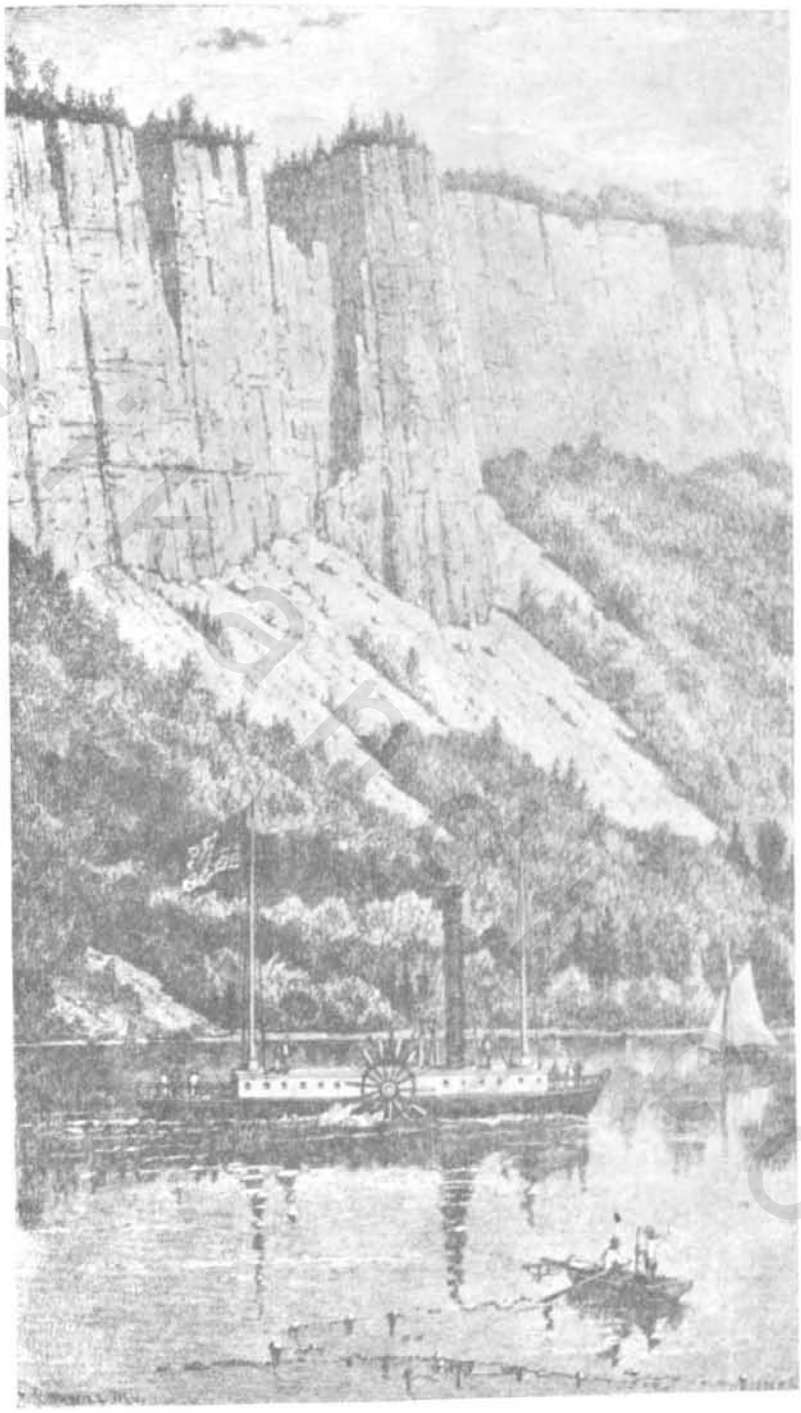

السفينة « كليرمونت » فى أول رحلة لها

٥ - وادي نهر الهدسون

امتاز أحد أيام شهر أغسطس عام ١٨٠٧ بالإثارة البالغة على نهر هدسون ، فقد ازدحم مجرى النهر بالسفن الصغيرة من كل نوع . وعلى الشاطىء كان هناك حشد كبير يعبرون عن سخريتهم لمنظر سفينة غريبة الشكل كانت تقف بجوار أحد أرصفة ميناء نيويورك .

(انظر ! يبدو أن مستر روبرت ليفنجستون سيغامر بحياته على ظهر هذه السفينة الشاذة) ، ولم لا ؟ فقد بناها بماله الخاص » .

وازدحم رصيف الميناء بالعظماء وقد أتوا ليركبوا السفينة « كليرمونت » التى أطلق عليها الناس اسماً مستعاراً (حماقة فولتون) ، وكانت أول سفينة بخارية تقوم برحلة فعلية .

« ها هو ذا روبرت فولتون ، المخترع يقف بجوار (هاريت) ابنة مستر ليفنجستون » .

« لا ، ليس هو مخترع السفينة البخارية ، فقـــد رأيت (جوليانا) السفينة البخارية الصغيرة تعبر النهر من ثلاث سنوات . كما يمتلك (فينش) واحدة من تلك الأشياء السخيفة فى بحيرة (كولـكت) وشكلها أشبه بغلاية المـاء » .

« غلاية المـاء ! إن منظرها يشبه الشيطان وكأنه يصعد النهر ممتطياً منشاراً للخشب » .

ولم يكن أحد يتوقع لهذا الشيء أن يتحرك . ولـكن ما إن ركبها هذا الحشد الـكبير حتى صعد البخار من المدخنة ، وابتعد الناس عن جوانب السفينة عندما تحركت بدالاتها فجأة ، وأثارت دفعات من المياه على الركاب الذين أخذوا يتصايحون فى مرح . وكان بإمكانهم أن يشاهدوا على سطح السفينة المحرك والغلاية وهما يحدثان جلبة وضوضاء ، وقد أصبح لون الغلاية أحمر من شدة الحرارة ، وكان الدخان والشرر يتصاعدان من مدخنة ارتفاعها ثلاثون قدماً ، وقد وقف أحد الرجال إلى جوار الغلاية لـكى يعالج « الشروخ » بالرصاص المصهور .

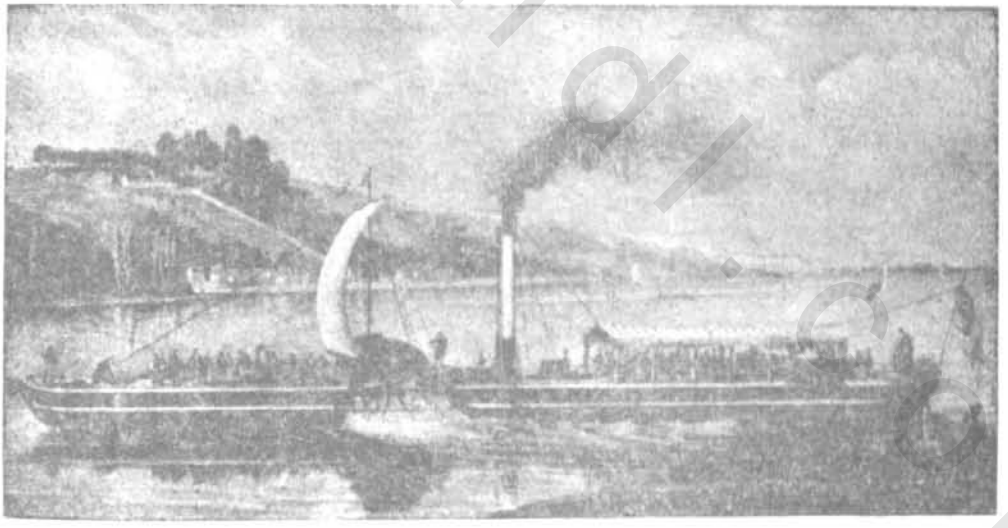

يبين هذا الرسم القديم السفينة « كليرمونت » وهى تستخدم الشراع والبخار
ويبدو أن كل فنان رسم السفينة وفقاً لذوقه الخاص

واهتزت (الكليرمونت) قليلا وتحركت إلى منتصف النهر ، ثم صعدت ببطء فى النهر ، وتركت الجماهير خلفها وقد أخذتهم المفاجأة . فأخذ كل منهم ينظر إلى الآخر فى دهشة ، وتعجب بناة السفن والبحارة كيف يمكن أن تتحرك سفينة بدون شراع ، وكيف تسير عكس اتجاه المد ، وبلغ من شدة الإثارة أن سقط بعض الناس من فوق الرصيف إلى مياه النهر .

وعلى ظهر « الكليرمونت » أخذ الركاب فى الضحك والغناء . ثم نزلوا إلى بيت ليفنجستون على الشاطىء حيث أعدت وليمة لهم بهذه المناسبة ، واحتفالا بخطبة هاريت ليفنجستون إلى روبرت فولتون . وبعد ذلك استمرت السفينة البخارية فى رحلتها حتى وصلت ألبانى وأمكنها إتمام الرحلة فى اثنتين وثلاثين ساعة. واستغرقت رحلة العودة ثلاثين ساعة فقط . ولم يمر أسبوعان حتى كان هناك خط منتظم للسفينة البخارية على نهر هدسون .

وأدرك ليفنجستون أنه يجب عليه حسن استغلال هذا الاختراع . ونظراً لأنه كان من ذوى النفوذ فى ولاية نيويورك ، فقد أمكنه استصدار قانون يمنع تشغيل السفن البخارية إلا إذا دفع أصحابها رسوماً فى مقابل استغلال هـــذا الاختراع . وبالفعل صدرت أحكام قضائية بتحطيم سفن بخارية لاثنين من بناة السفن فى نيوجيرسى . وقام فولتون ببناء عدة سفن بخارية أخرى ، كما أدخل عليها كثيراً من التحسينات .

وكان لايزال هنالك بعض من الرجال فى نيوجرسى لم تثبط همتهم بعد ؛ فقد كانت ولاية نيوجيرسى تمتلك جزءاً من شاطىء النهر . وفى أحد الأيام انطلقت سفينة بخارية صغيرة تسمى (ماوس أوف ذى ماونتين) أى فأرة الجبل ، من مدينة إليزابث تاون بنيوجيرسى إلى مدينة نيويورك . وأصدرت محكمة نيويورك حكما ضد صاحب السفينة ، ولكنه لم يحضر لأنه كان من سكان نيوجيرسى . وأقبل الناس على ركوب « الماوس » مما دعا صاحبها إلى بناء سفينة بخارية أكبر سميت (بلونا) ، وكان عليها قبطان من أصل هولندى يدعى (كورنيليوس فاندر بيلت) .

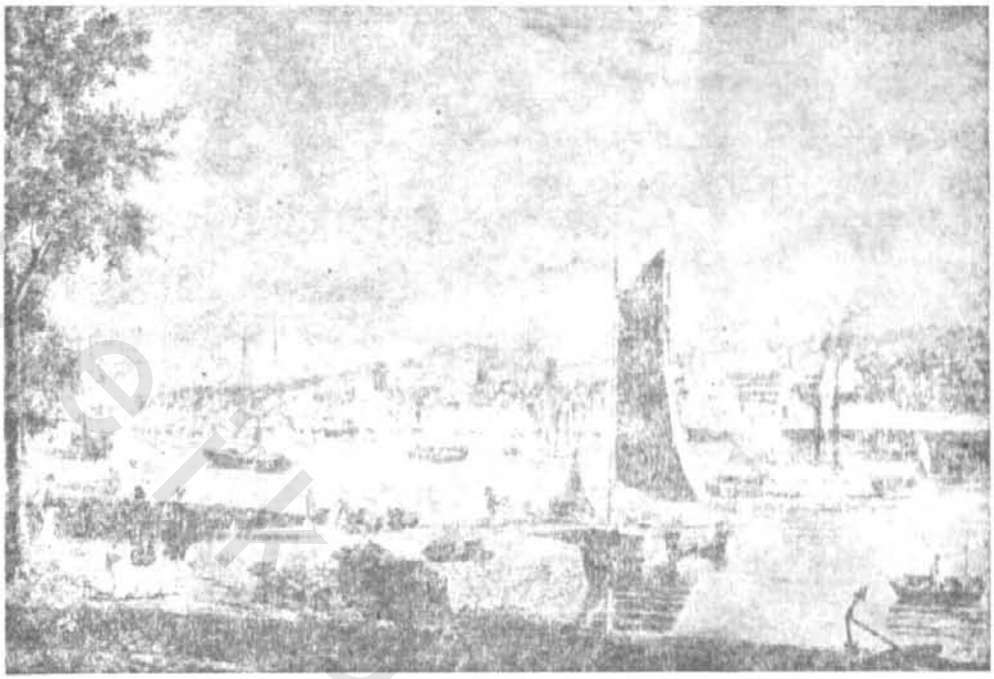

مدينة تروى كما تشاهد من الضفة الغربية لنهر الهدسون — عام ١٨٣٧

وعندما رست سفينته على الشاطىء الجنوبى لمانهاتان حاول رجال الشرطة القبض عليه ، ولكنه كان بارعا فى الاختفاء والهرب منهم . ولكنه عندما سئم الهروب من رجال الشرطة اضطر إلى إعداد مخبأ سرى له خلف أحد الألواح الخشبية فى قمرته ، حيث أخذ بعد ذلك فى الاختباء من رجال الشرطة والضحك عليهم وهم يقلبون المكان بحثاً عنه .

وأخفق رجال شرطة نيويورك فى القبض على « فاندربيلت » والزج به خلف القضبان ، ولم يعد خافياً على الأهالى فى جميع أرجاء البلاد قصة « فاندربيلت » مع الشرطة ، والتى تشبه لعبة القط والفأر — فأيده الجميع بحماسة ، ونظرت القضية أمام المحكمة العليا للولايات المتحدة ، وعبر دانيل ويبستر بصوته العميق عن رأيه فى المشكلة عندما قال : « إن من حق سكان نيويورك أن تتوافر لهم الحماية ضد هذا الاحتكار » .

وقرر « مارشال » كبير القضاة وهيئة المحكمة أن من حق جميع الناس أن يسمح لهم بتشغيل سفن بخارية على النهر . وعقب ذلك ازدحمت الترسانات بإنتاج أعداد كبيرة من السفن البخارية . وأخذت السفن الجديدة تنفث دخانها عالياً فى صعودها النهر وهبوطها ، فتوقف نشاط السفن الشراعية إلا فى مجال نقل البضائع . وأولع الركاب بالسفن البخارية وكان لكل منهم سفينته المفضلة . وعند كل رصيف كنت ترى عدداً من العاملين على تلك السفن وهم يروجون لسفنهم ، إذ تحولت إحدى السفن البخارية إلى ملهى ، فى حين أصبحت سفينة أخرى مسرحا لحفلات الأوبرا . وكانت المصابيح المضاءة بالكهروسين تتلألأ كالنجوم على صفحة الماء .

وكنت أحيانا تسمع أحد الرجال وهو يصيح : « سباق السفن البخارية حول رأس الجزيرة .. انظر إلى السفن وقد بدأت السباق » .

كان مثل هذا السباق محفوفا بالأخطار ، فأحيانا كانت الغلايات تنفجر وتمزق من حولها من الناس إربا إربا . وكثيراً ما كان يحدث تصادم تكون نتيجته غرق كثير من الركاب ومن البحارة أيضاً فى مياه النهر ، وكان لا بد من وضع حد لذلك ، فبدأت جريدة نيويورك هيرالد حملة تنبه فيها الناس إلى أن الغرض الحقيقى من تلك المسابقات كان تجارياً يخفى وراءه المنافسة للحصول على بضائع وركاب والدعاية . وانتهى الأمر بإصدار قانون يحرم مسابقات تلك السفن .

وباختفاء السباق أصبح النهر أكثر أمناً ، ولكن فى الوقت ذاته أقل إثارة ، وكانت ملكة البواخر النهرية هى السفينة « مارى باول » التى بنيت عام ١٨٦١ ، وكانت بحق سفينة جميلة أنيقة استمرت تمخر عباب الماء فى نهر الجبال العظيم لمدة ٦٢ سنة ، وكانت دائماً تحافظ على مواعيدها ولم يكن لها منافس حقيقى .

ومن الإعلانات الطريفة التى كانت تروج لتلك السفينة إعلان يقول : « سافر على « مارى باول » فإنها ستصل بك إلى المكان الذى ترغبه فى الوقت المحدد وجسمك مكتمل الأعضاء . إنها السفينة التى لم يفقد منها راكب قط » .

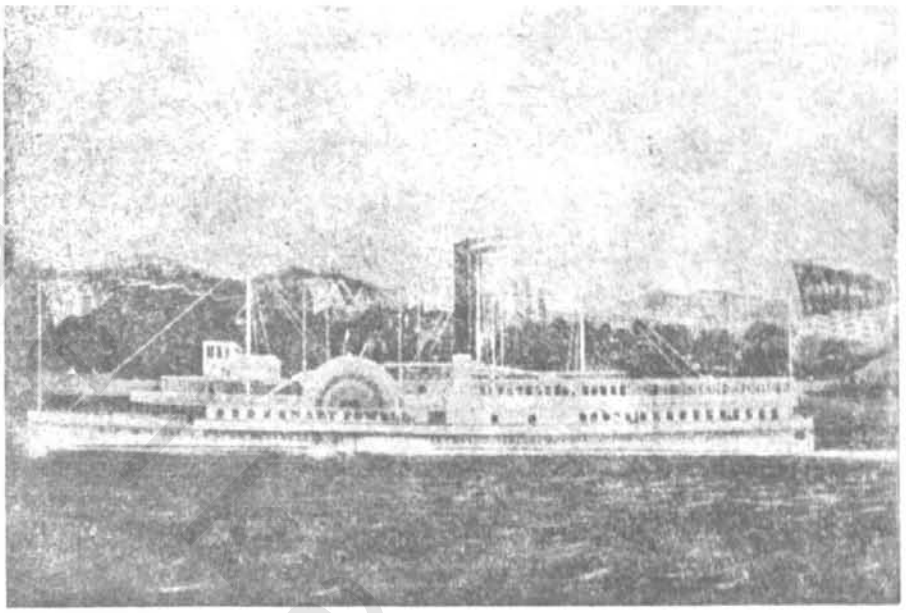

صورة بالزيت للسفينة التجارية مارى باول سنة ١٨٦١

وبعد انقضاء ثمان عشرة سنة على الرحلة التاريخية للسفينة كليرمونت جاء يوم آخر مشهود على نهر هدسون ، وكان ذلك فى السادس والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٨٢٥ كان ذلك اليوم مشمسا فيه برودة منعشة ، وفى أثنائه اعترى كل فرد من السكان من ألبانى إلى جزيرة ستاتن تحمس ملحوظ ، ووقف كل منهم كما لو كان ينصت إلى شىء ما ، وسرعان ما سمعوا ما كانوا يتوقعون ، إذ حملت أمواج الهواء هديرا بعيداً لقصف المدافع ، وكان ذلك بمثابة إعلان لسكان ولايتى نيويورك ونيوجيرسى بأنه قد تم ربط البحيرات العظمى بالمحيط الأطلنطى بواسطة القناة الجديدة ـ قناة ايرى .

وفى الرابع من نوفمبر سار موكب من القوارب على نهر هدسون يسحب كل منها صندلا رفعت عليه الأعلام والزينات ، وانطلقت الصفارات ، وأبواق ، وهتافات الناس ، تحية لهذه القوارب والصنادل التى كانت تسير متجهة إلى

المحيط الأطلنطى . وألقيت الخطب ، ثم قام محافظ نيويورك بسكب وعاء كبير من مياه بحيرة (إيرى) فى مياه المحيط .

وكان هذا إيذانا بافتتاح قناة (ايرى) التى ربطت بحيرة « ايرى » بما فى البحيرات والمجارى المائية ، كما ربطتها بنهر هدسون . والآن أصبح بإمكان البضائع والركاب التنقل بحراً من المحيط الأطلنطى حتى أعلى نهر هدسون ونهر موهوك ، ثم عن طريق قناة ايرى إلى البحيرات العظمى . ومن هناك كانت السفن تستطيع أن تتجه غربا بسهولة وبسرعة أكبر من ذى قبل ، وإذا كانت سفينة فولتون البخارية قد جعلت استبطان الأراضى الغربية ممكنا ، فإن إيرى جعلت من ميناء نيويورك واحدا من أعظم موانىء العالم ، وبفضلها انطلق وادى النهر بأكمله نحو النمو المطرد السريع .

كان الكاتب واشنطون ايرفينج مشغوفا فى شبابه بالإنصات إلى القصص التى كان يرويها القباطنة ، كما أخذ فى التجوال على ضفاف الهدسون ليجمع القصص القديمة ويسجلها فى كتبه . ومن بين هذه الروايات قصة (ايكابود كرين) ، وكيف انطلق به أحد الجياد البرية مخترقا مقابر كنيسة (سيلبى هولو) ، وكان اسم هذه القصة أسطورة (سيلبى هولو) ، وأصبح الناس عندما يأتون إلى النهر (بالقرب من تارى تاون) يطلبون مشاهدة المكان الذى تقابل فيه (إيكابود) التعس مع الشبح المخيف لأحد الجنود المرتزقة ، وكان هذا على جسر لا يبعد كثيراً من الشجرة التى تم عندها القبض على الميجور اندريه .

وكان بعض قصص إيرفنج تصيب الإنسان بالقشعريرة ، وبعضها الآخر كان فكها ومن بينها ظهرت واحدة بدا أنها تتنبأ بمستقبل جزيرة مانهاتن .

إيكابود كرين فى انطلاقه الجنونى بالقرب من مقابر « سليبى هولو »

وكانت هذه هى قصة « أولوف ، الحاكم » الذى عاصر نيو أمستردام ، عندما كانت قرية . فبينما كان « ألوف » جالساً تحت شجرة بلوط أخذته سنة من نوم ، وتراءى له أن « سانت نيكولا » قد أتى وجلس بجواره . وأخذ الدخان يتصاعد من غليون السانت إلى السماء مكونا أشكالا رائعة كلما نفخ فيها . وبدت هذه الأشكال « لأولوف » وكأنها « قصور وقباب ومآذن شاهقة » وإننا لنتذكر حلم « أولوف » هذا عند ما ننظر إلى سماء نيويورك عبر النهر .

(أولوف وهو يتخيل الدخان كالمآذن والقباب العالية)

وكلما تقدمت السنون فى القرن التاسع عشر أخذ ملاك الأراضى الأغنياء يتلاشون ، وأخيراً أصبح لمستأجر الأرض الحق فى أن يتملكها على الرغم من أن قلاع « الباترونات » كانت لا تزال تقع على مرتفعات نهر هدسون .

وشيدت أنماط أخرى للمنازل . وكان بعضها يزين بقواطع خشبية يطلق عليها (خبز الزنجبيل) ، وكان لبعضها الآخر ثمانية جوانب وكانت تسمى المنازل المثمنة الأضلاع ، وكأن هذه المنازل قد بنيت على شكل شرائح الفطيرة .

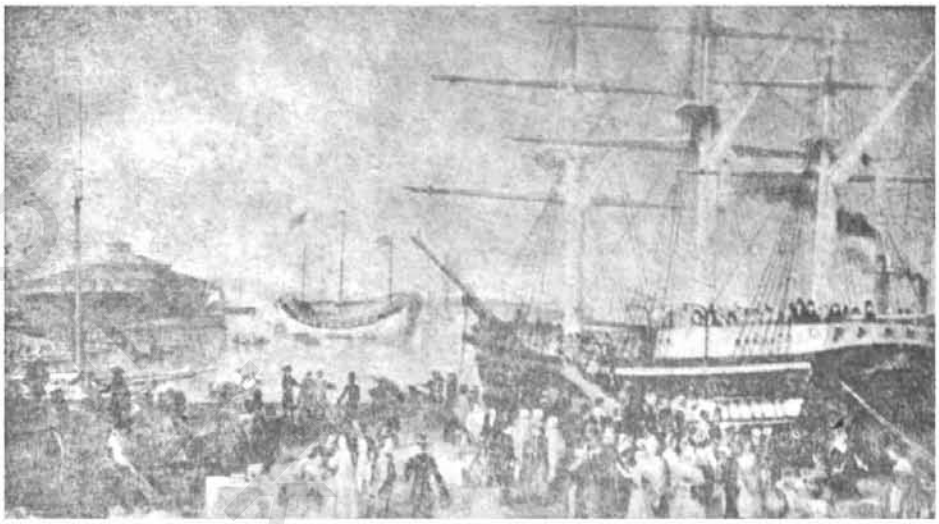

لوحة رسمها صمويل وو عام ١٨٤٧ تبين مدفعية نيويورك

وعلى ضفاف الهدسون جاء الفنانون ليرسموا المناظر الرائعة ، وأطلق عليهم (مدرسة نهر هدسون للرسم) ، وأصبحت (وست بوينت) الأكاديمية الحربية الأمريكية لتدريب ضباط الجيش ، كما أصبحت مدينة نيويورك المركز المالى للعالم .

وكان النهر مزدحما بالسفن والصنادل المائية . وحتى قوارب صيد الحيتان كانت لفترة ما تقلع من موانىء ، نهر هدسون . وأقيمت مبان حجرية ضخمة على ضفاف النهر لتخزين الثلج الذى كان يستقطع من النهر فى الشتاء ثم يوضع فيها . وفى الصيف كان الثلج ينقل منها على ظهر الصنادل إلى المدينة . وكانت سفن الشحن تنقل البضائع إلى ألبانى ، فى حين كانت السفن البخارية تمخر عباب النهر دون انقطاع ، وعلى طول الشواطىء ، أخذت المصانع والمحاجر والقمائن ومصانع الأسمنت تظهر إلى جانب الحقول ومزارع الكروم ، كما مدت السكك الحديدية على طول ضفتى النهر .

وبنمو مدينة نيويورك أخذت قوارب العبور (المعدية) تنقل المسافرين من وإلى نيوجيرسى وجزيرة ستاتن . ودبت الحياة فى الميناء فامتلأ بالسفن من

شتى أرجاء العالم ، وازدحمت « الترسانات » بالعمل لتعد الامريكيين بسفن أخرى جديدة .

وكانت أمريكا بالنسبة للأوربيين أرض الميعاد ، فلعدة سنوات لم ينقطعوا يوما عن الحضور إليها بقوارب محملة عن آخرها . وكانت أول قطعة أرض أمريكية يطؤونها هى جزيرة « إليس » فى ميناء نيويورك حيث أقيم مكتب الهجرة ، ولم تبق جزيرة إليس للهجرة طويلا . ولكن فى عام ١٩٠٧ عبر هذه الجزيرة متجها إلى أمريكا ، نحو مليون وربع مليون مهاجر .

كان يوم ٢٨ أكتوبر عام ١٨٨٦ يوماً بارداً مطيراً . ولكن الآلاف من سكان نيويورك تزاحموا جميعاً على أرصفة الميناء ، وانضم اليهم زوار كثيرون من الولايات الأخرى ، كما كان مصب النهر مزدحماً بالقوارب من كل شكل ولون ، وأعلام كل الدول قد علقت لترفرف على صواريها ، ويشاهد الجميع على جزيرة « بدلو » كتلة ضخمة مبهمة مغطاة بالعلم الفرنسى . وعندما أنزل العلم أطلقت السفن صفاراتها وانطلقت مدافع البحرية تحية وإجلالا لتمثال الحرية .

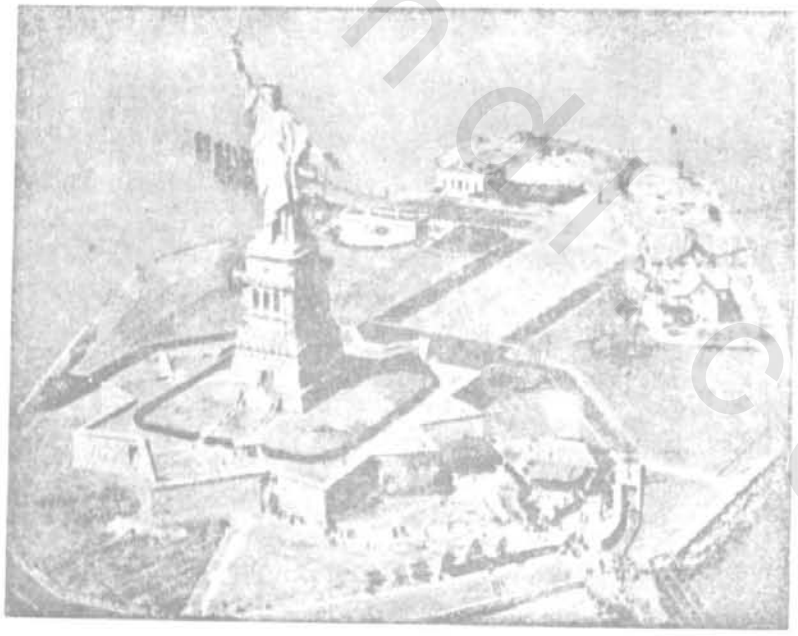

تمثال الحرية قائماً على جزيرة صغيرة فى ميناء نيويورك

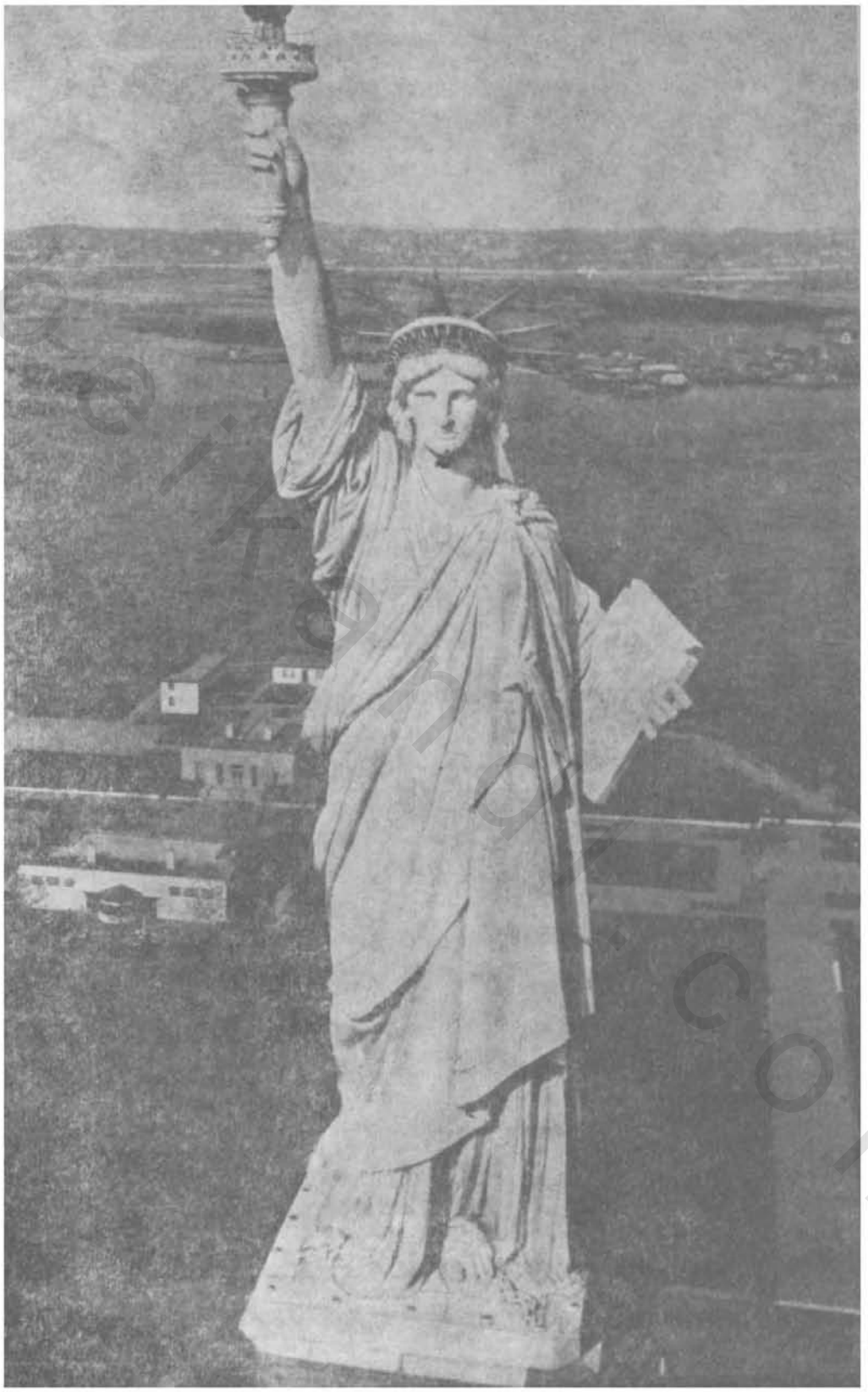

وفى داخل قاعدة هذا النصب التذكارى نقشت قصيدة كتبها (اما لا زاروس) وهى تتضمن هذه الأبيات :

(. . أعطنى قومك المتعبين ، قومك الفقراء
قومك المتحرقين شوقا لتنفس عبير الحرية الغراء ،
تلك الجموع التى تلفظها بلاد الأصدقاء
أرسل إلىّ بمن لابيت له ، بمن قاسى شظف الحياة .
فإننى أرفع مشعلى لأنير طريق الخيرات .)

ويبلغ طول التمثال المصنوع من النحاس ١٥١ قدما ، ويرتفع فوق مستوى مياه نهر هدسون والخليج حتى أعلى الشعلة بمسافة ٣٠٥ أقدام . ومن أعلى التمثال عند الرأس يستطيع الإنسان أن يرى منظراً رائعا عن بعد النهر الذى يجرى فى اتجاهين .

وبانتهاء القرن التاسع عشر كان الناس يطلقون على المدينة القائمة على الجزيرة فى نهر هدسون (نيويورك القديمة الصغيرة) . لقد كانت مدينة مثيرة كثيرة النشاط دائمة الحركة والتغير .

← تمثال الحرية الذى أهداه الشعب الفرنسى عام ١٨٨٤ إلى الولايات المتحدة

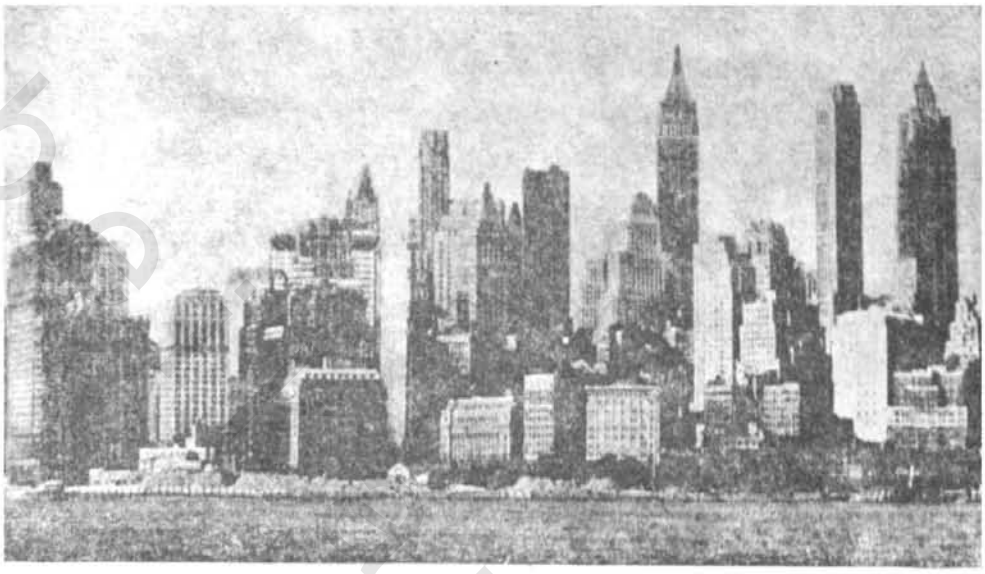

٦ - مدينة ناطحات السحاب

لابد وأن تتغير ملامح ضفاف النهر مادام الإنسان يقطع ويحفر وينسف ويبنى ويرصف على ضفتيه . وقد كان نهر الجبال العظيم فى فترة ما هو الطريق الوحيد الموصل بين ميناء نيويورك والأماكن البعيدة فى الشمال والغرب . كما كانت القرى الصغيرة المنعزلة المترامية بين الجبال تبدو بعيدة بعد أوطان الهولنديين والفرنسيين والإنجليز والألمان عبر البحار كما كان النهر يعج فى فترة ما بالسفن الشراعية .

وقبل ذلك بوقت طويل كانت القوارب المصنوعة من قلف الشوكران تجوب مياه النهر ويوجهها السكان الهنود بمجاديفهم ، وكانت هناك غابات تتوج أشجارها قمم أجراف الباليسيدز المرتفعة . وقديما كانت هناك جزيرة تسمى مانهاتان تمتد فيها الخضرة من مجرى (سبوتين دويفل) حتى حديقة (باترى) .

لم يعد هناك الآن أى من السفن البخارية التى تضرب المياه ببدالاتها خلال رحلاتها المنتظمة إلى ألبانى ، كما لم تعد هناك سفن هولندية تخفض شراعها الأكبر تحية إلى العفريت (هير) ببوقه وقبعته التى تشبه قمع السكر عند جبال الرعد .

ولكن مازال بإمكان سكان نيويورك أن يتكدسوا على قوارب النزهة فى الأيام القائظة الحر فيذهبون إلى جبل (بير) لرحلاتهم الخلوية لإقامة المعسكرات وفى الخريف تستخدم السفن البخارية فى الرحلات الخاصة إلى وست بوينت لحضور مباريات كرة القدم .

وتجرى السيارات إلى جوار النهر شمالا وجنوبا وتأتى بالناس من كل مكان ليستمتعوا بجمال الطبيعة الخلابة . فهذه مدينة شلالات (جانز فولز) حيث تولد طاقة لتشغيل المصانع من مياه النهر المتساقطة . وهنالك (ألبانى) العاصمة قائمة على أحد التلال ، وقد حولت القلاع والقصور ومنازل العظماء السابقين إلى مدارس ومستشفيات ومبان للكنائس . ولم يبق غير حفنة قليلة من أحفاد الباترونات الهولنديين وملاك الأرض الانجليز الذين مازالوا يقيمون فى ضياعهم القديمة .

ولاتزال توجد بعض المنازل القديمة على ضفة النهر فى (هدسون تاون) تبدو وكأنها تنتظر عودة قوارب صيد الحيتان مع قدوم المد والريح المواتية . وبمقدم الربيع تنشط سفن نقل البضائع على النهر متجهة إلى الجنوب فيستنشق بحارتها عبير البنفسج الذى تأتى به الريح من (راينبك) حيث تزرع مساحات كبيرة من هذا الزهر .

وكثيراً ما يأتى الفنانون من مستعمرة (وود ستوك) فى منطقة جبال كاتسكيل إلى سوجرتيس على الضفة الغربية للنهر حيث يحلو لهم رسم لوحات لهذه المدينة الزاهية الألوان . وبالقرب من هناك تتجمع النهيرات الجبلية وتصب فى خزان (أشوكان) الضخم الذى يمد نيويورك بالمياه بواسطة الأنابيب .

وفى هايدبارك على الضفة الشرقية توجد مقاطعة تعتبر مزاراً قوميا . إنها موطن فرانكلين دلينو روزفلت . ويقوم الزوار بالتجوال فى القصر لرؤية الأشياء التى

« سانى سايد » وهو منزل واشنطون إيرفنج — مفتوح الآن للزوار

كان يستعملها روزفلت — فيشاهدون رداء أسود وصفوفا من الكتب التى يبدو عليها كثرة الاستعمال ونماذج للسفن ويشاهدون الكرسى ذا العجلات الذى كان يجلس عليه الرئيس روزفلت ليقود أمته فى أيام الحرب الهوجاء . ولم يتغير النهر نفسه ابتداء من منبعه من جبل (مارسى) حتى مصبه فى المحيط . ولكن هناك كثيراً من التغيرات حدثت على سطحه وجانبيه ومن تحته ومن فوقه . فهنالك من التغيرات ما يكفى لأن يحبس أنفاس أى مواطن هولندى بدين من سكان نيو أمستردام القديمة ، إذا هو بعث إلى الحياة .

ويوجد عديد من الجسور فى الجزء الأعلى من النهر . ففى منطقة (الهايلاندز) يقوم جسر مرتفع بالربط مابين جبل (بير) وبين (انتونيز نوز) ومن هذه

النقطة يأخذ الطريق فى الالتواء مارا بعدة مدن مزدانة بالأشجار الوارفة ، كما يمر بسجن (سنج سنج) الكئيب فى (أوسينينج) ، ثم فى النهاية يصل إلى تارى تاون حيث يقع بين واشنطون إيرفنج الذى يفد إليه الزوار لمشاهدة تكوينه العجيب من مجموعة من الجلوبات الأنيقة ذات الزوايا الكثيرة والأركان (كأنه قبعة ذات هرف) على حد وصف إيرفنج .

ومياه الجزء الأدنى من نهر هدسون دائمة الحركة تبعا للمد والجزر والرياح والأمطار . فيعتبر سطح النهر مجالا مناسبا لسباق القوارب والتزه « بالنشات » ذات المحركات الخارجية ، وعلى الشاطىء الغربى تعرضت تلال الباليسيدز لخطر الدمار التام فى مطلع القرن العشرين . إذ أقيمت المحاجر الكثيرة لاستغلال الكميات الهائلة من الحصى والأحجار . فنسفت الأجزاء الناتئة من الجبال ، وقطعت الأشجار الضخمة . وقام مواطنوا الولايتين بإبداء معارضتهم لهذا التشويه ، وبذلك تمكنوا من إنقاذ الجروف الخلابة المنظر ، وبعض من الغابات التى استخدمت بعد ذلك كحدائق عامة .

وجنوبى الهايلاندز أقيم جسر جديد يربط بين (نياك) و « تارى تاون » عابرا منطقة التابان زى . وإذا هبطنا فى النهر أبعد من ذلك فإننا نشاهد فى فصل الربيع الشباك وقد نصبت على جانبى النهر حيث ترسو سفن الشحن واليخوت والسفن البحرية ، وهنا يأتى الصيادون بما جمعوه من سمك الشابل الفضى اللون . ويمتد جسر جورج واشنطون الذى يعلو هذه الشباك يربط مرتفعات فورت لى بمرتفعات واشنطون ، وهو أحد أطول ثلاثة جسور معلقة فى العالم . كما قيل عنه أيضا إنه أجمل الجسور على الإطلاق . وأسفل الجسر عند رساة جيفرى نجد منارة حمراء صغيرة لاتزال قائمة وقد تم الاحتفاظ بها بسبب تعلق الأطفال بها على الرغم من أنها لا تضاء منذ زمن .

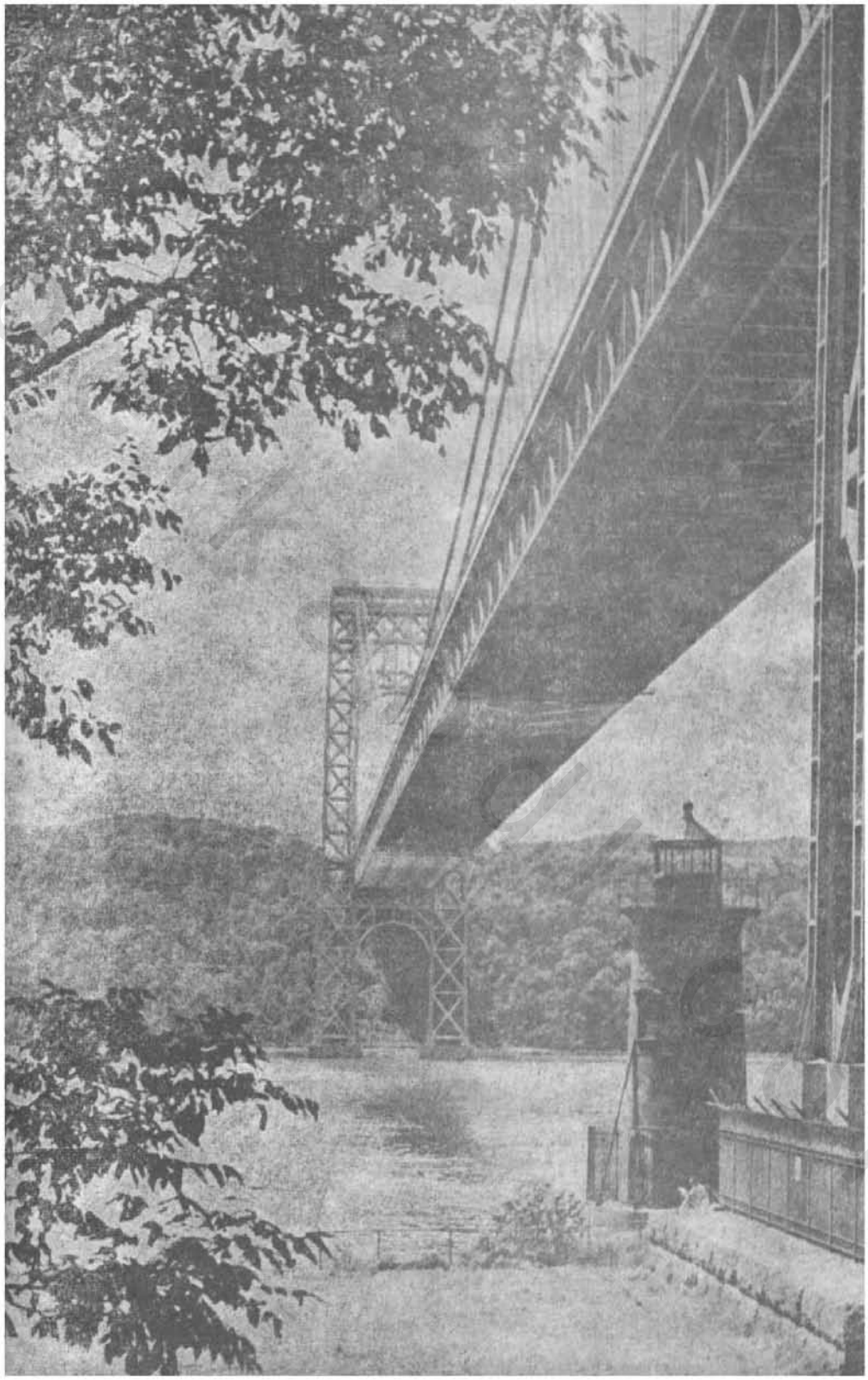

وعندما تشتعل إحدى الحرائق على شاطىء النهر تهرع إليها قوارب الحريق بسرعة خلال حركة السفن المزدحمة على النهر وتوجه إلى النيران سيلا من المياه المضغوطة لإطفاء الحريق . وتقوم قوارب شرطة الميناء بدوريات منتظمة على النهر الذى لاتهدأ عليه الحركة أبدا . ويتم إدخال عابرات المحيطات الضخمة إلى أحواضها بواسطة قاطرات صغيرة تقوم بسحبها . انظر إلى تلك السفينة الضخمة . إنها (الولايات المتحدة) وتلك هى (كوين إليزابيث) كما تصل إلى الميناء وتبحر منه عابرات أخرى من شتى أرجاء العالم .

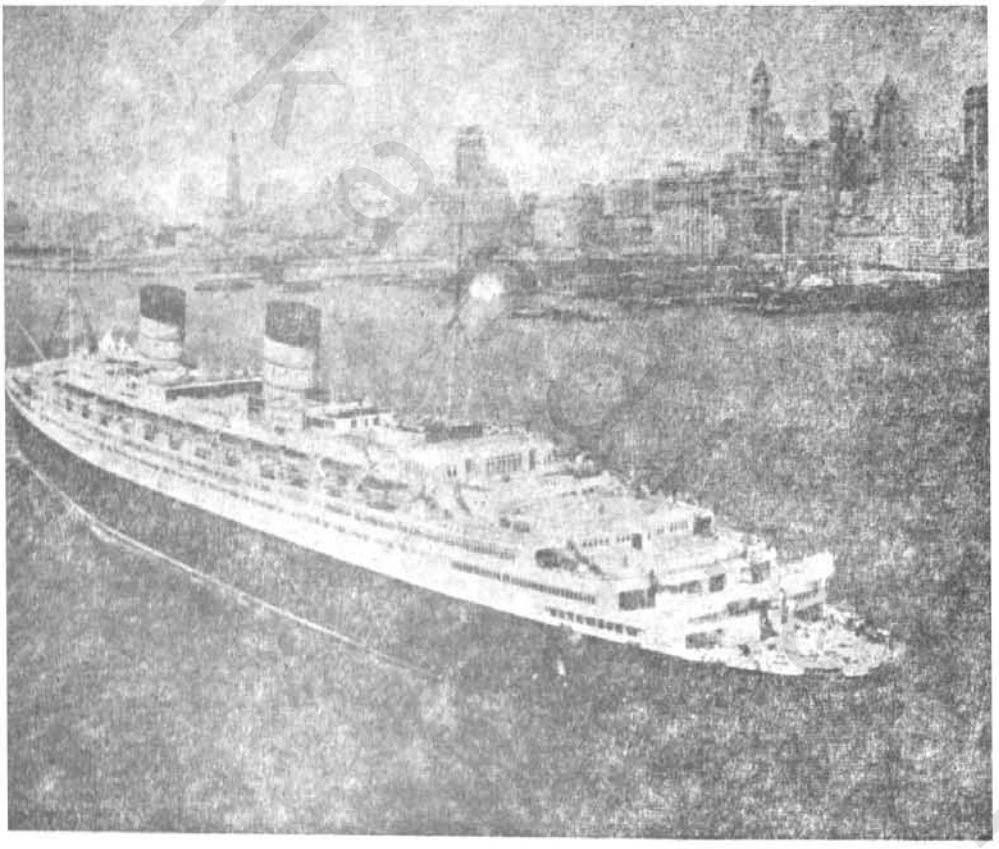

السفينة كوين إليزابث وهى تدخل ميناء نيويورك .

وفى الصيف تقوم قوارب الزهة الصغيرة بالدوران حول جزيرة مانهاتان دون أن تخشى (سبوتين دويفل) أو (شبح بوابة الجحيم) .

وتحت مياه نهر هدسون توجد أنفاق للسكك الحديدية والسيارات . ففى كل يوم تأتى إلى مانهاتان وتخرج منها آلاف السيارات خلال نفق (لينكولن) و (هولاند) . .

وينلألأ فوق مياه نهر هدسون ضوء الشمس عند انعكاسه على الأجنحة الفضية للطائرات ، ولم يعد صوت النفاثات الأسرع من الصوت يثير دهشة السكان . وفى الليل تزدان السماء بالألوان الحمراء والبيضاء التى تنبعث من الطائرات عند إقلاعها أو هبوطها . . كما تحلق الطائرات (الهليكوبتر) فوق جسر جورج واشنطون لمراقبة سير صفوف السيارات ، وبين الحين والآخر يبدو الميناء

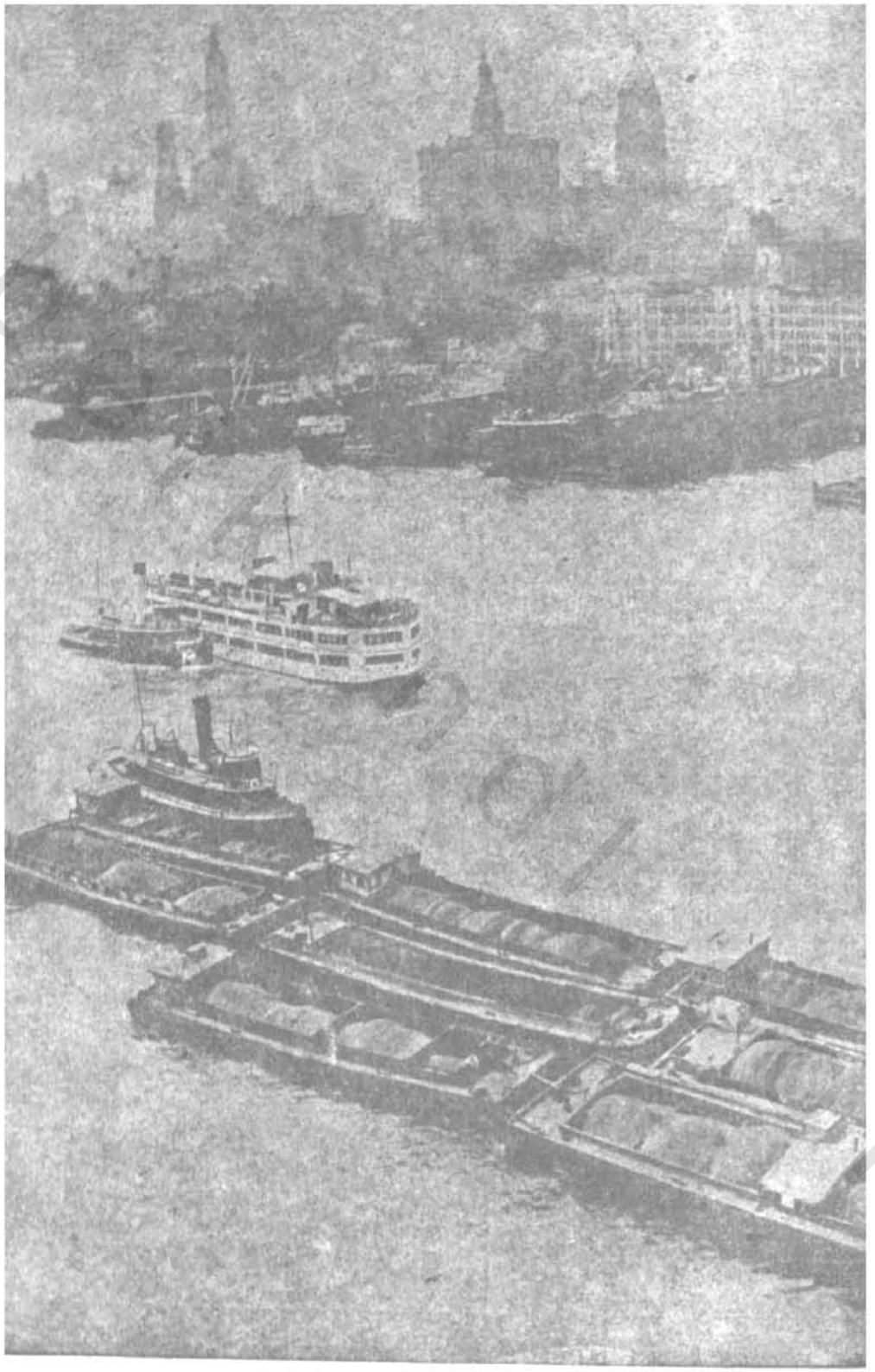

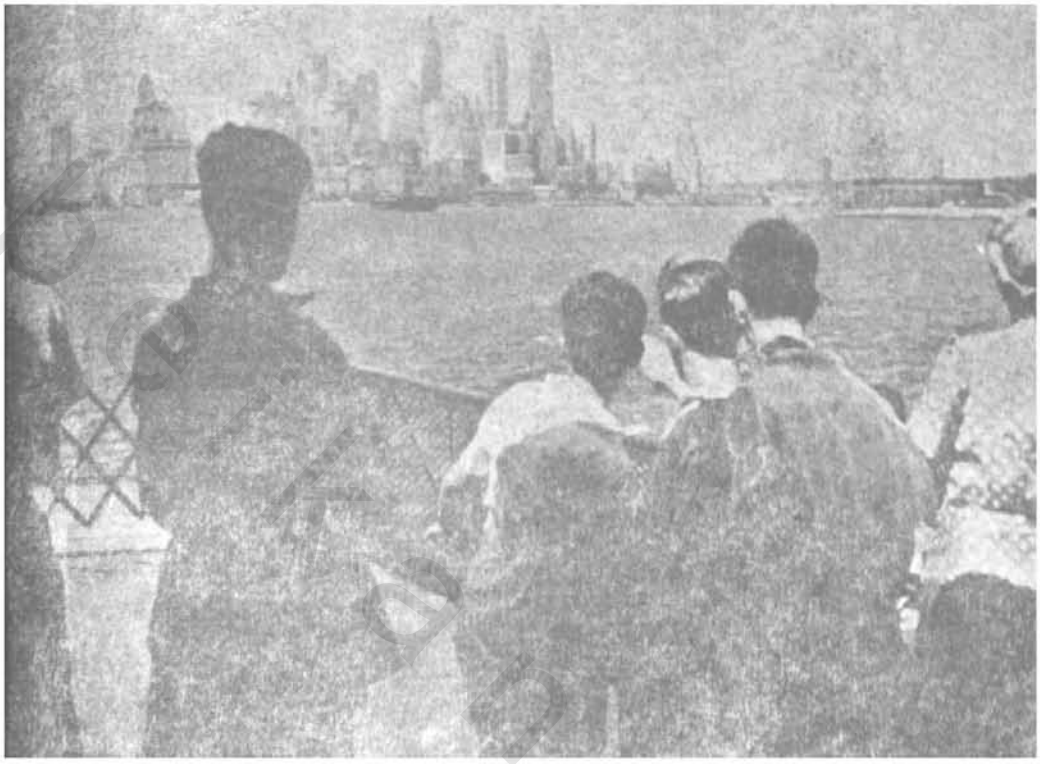

ركاب معدية جزيرة ستاتن وهم يتطلعون إلى ناطحات السحاب

وكأنه سينفجر من تأثير الألعاب النارية والضجيج عندما تكون هناك مناسبة يحتفل بها .

وعلى امتداد النهر تجرى أعداد لا حصر لها من السيارات ليلا ونهارا ، على الطرق التى كانت فيما مضى دروبا يستخدمها را كبو الدراجات . وإذا بحثت الآن عن (المعديات) القديمة فلن تجد معظمها فيما عدا معدية (جيرسى سيتى) و(ستاتن أيلاند) .

ولم تعد مدينة نيويورك صغيرة كما كانت الحال قديما . فإن تعداد سكانها الآن يضعها فى المرتبة الثالثة بين أكبر مدن العالم . ففى شوارعها المحاطة بالمبانى العالية تجد أحياء متكاملة يقطنها الأجانب من كل مكان فى العالم .

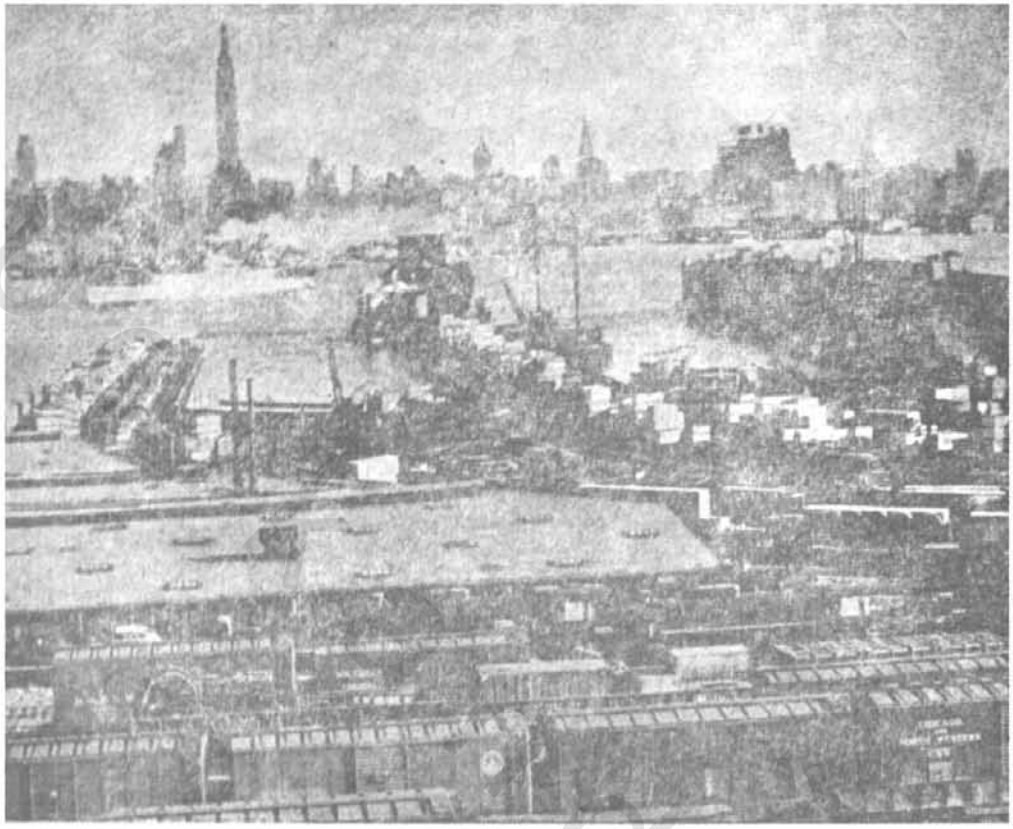

أرصفة السكك الحديدية على شاطىء مدينة جيرسى وقد تراكمت البضائع عليها

ومع ذلك فإن مدينة نيويورك لا يبدو عليها القدم بتاتا ، فهى دائمة التغيير ، دائمة الهدم ودائمة الإنشاء . ويخيل للمرء أن مبانى مرتفعة من الصلب والزجاج قد أقيمت بين عشية وضحاها ، فمثلا شارع (برود واى) الذى كان يوما ما شارعا صغيراً تظله الأشجار ، أصبح الآن من أطول الشوارع فى العالم . وفى المساء تراه متلالئاً بأضوائه الباهرة .

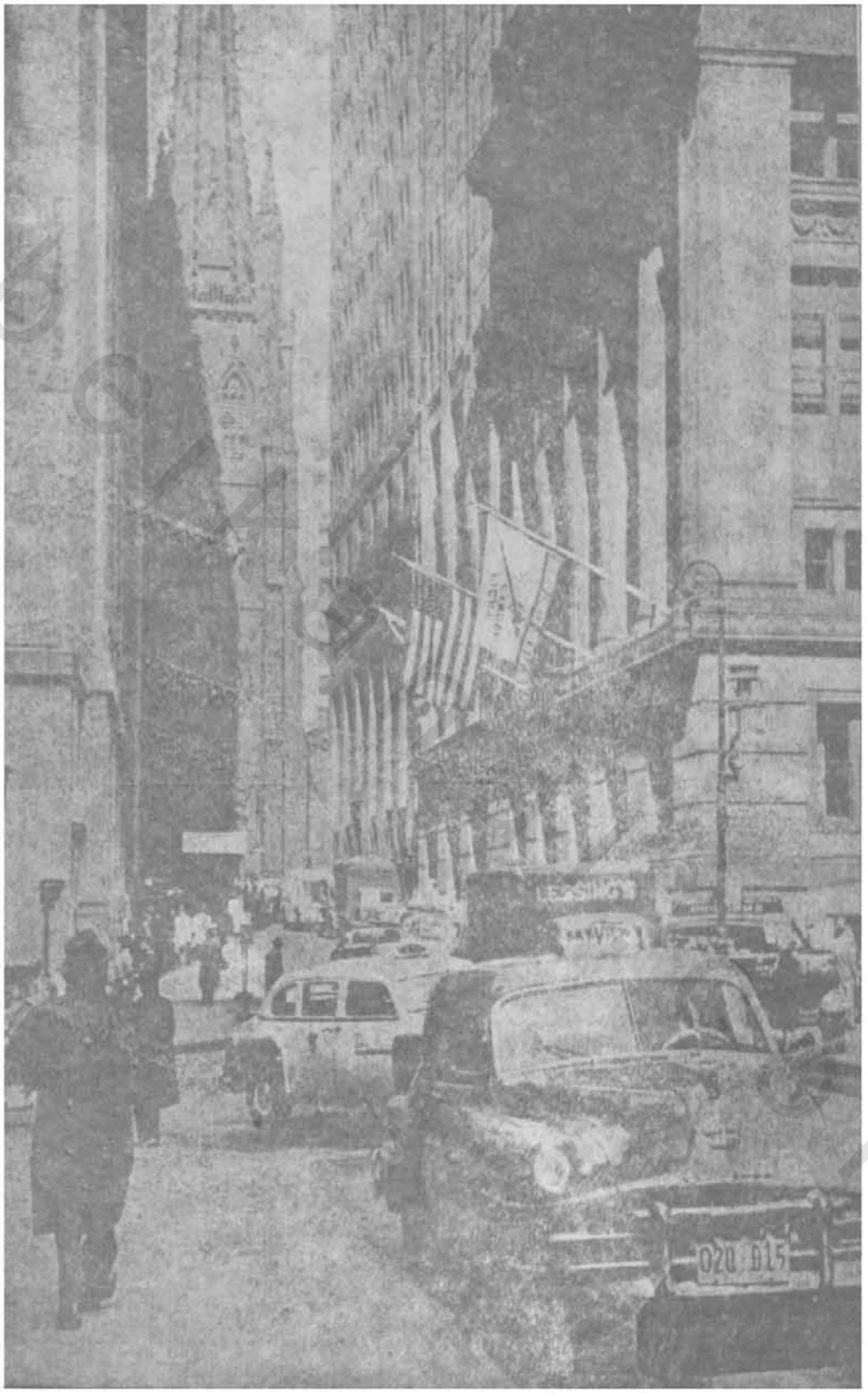
020 B15

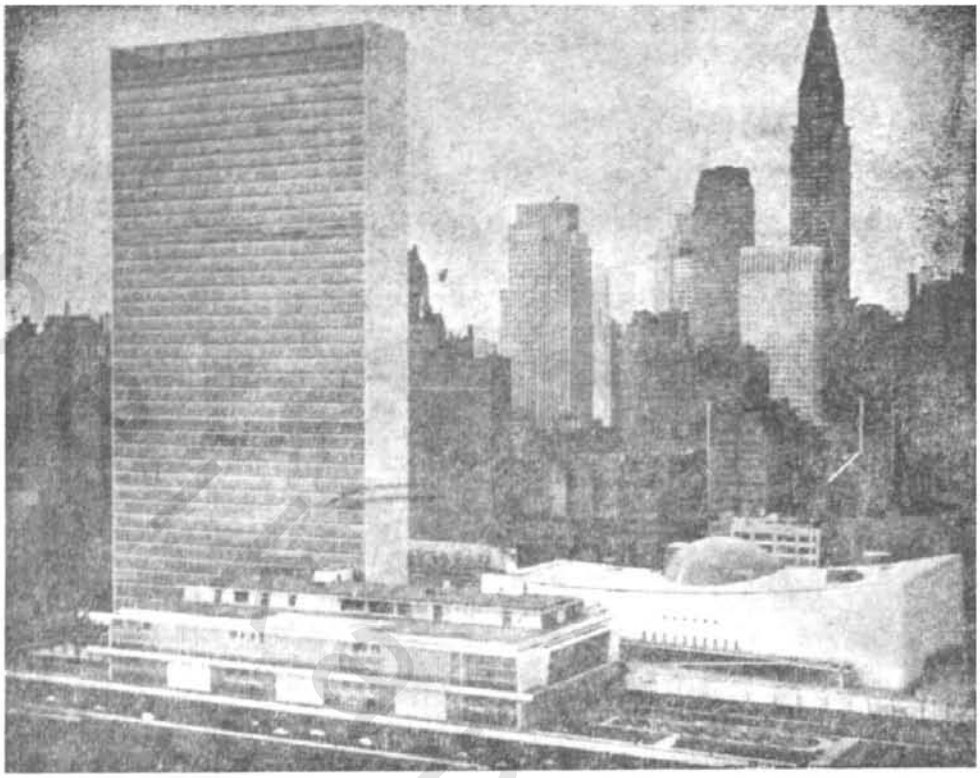

مبنى الأمم المتحدة يرتفع على ضفة نهر ايست فى وسط مانهاتن .

ويبلغ طول جزيرة مانهاتان ثلاثة عشر ميلا وعرضها ميلا ونصف ميل . ونظراً لتعذر التوسع الأفقى فقد كان الحل هو التوسع الرأسى ، فأخذت ناطحات السحاب فى الارتفاع نحو السماء فى أشكال هندسية ومستطيلة ، بينما كان الحفر جاريا لعمل الأنفاق .

إن نهر هدسون الذى نشأ على منحدرات جبل يخترق السحب فى سيرها ينتهى كذلك عند مدينة شمخت مبانيها لتناطح السحب . ولم يعد هنالك أثر للجزيرة التى نام فوقها (أولوف) وشاهد حلمه العجيب . كما اختفت بين صفحات

الكتب تلك المدينة التى كان يطلق عليها منذ ستين عاما (نيويورك القديمة الصغيرة) ولكن حلم (أولوف) قد تحقق ، فإن التغير يأتى ويذهب . ولكن نهر الجبال العظيم الذى نسب إلى هنرى هدسون لا يتغير أبداً فى الحقيقة ، إذ تندفق مياهه فى مجراه العميق حتى تتلاشى وسط الأمواج المتلاطمة للمحيط الأطلنطى .

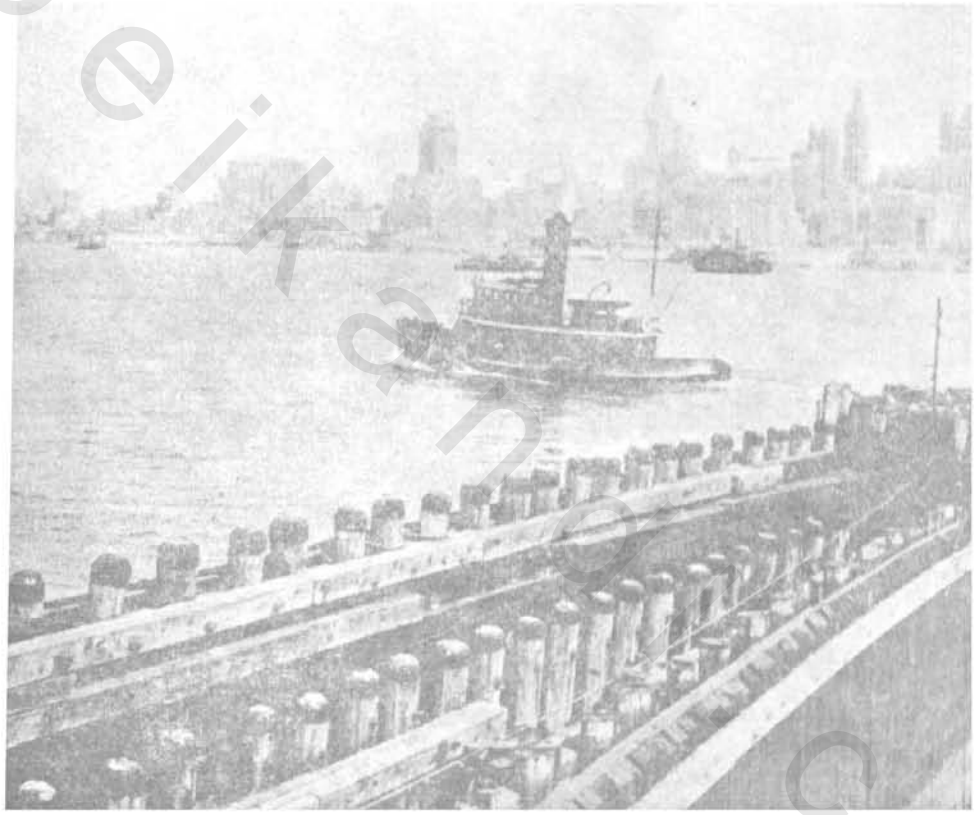

تقوم القاطرات بدور كبير فى حركة الملاحة على الجزء الأدنى من نهر الهدسون

صدر من هذه السلسلة

١ ـ النيل شريان الحياة فى مصر — ترجمة فؤاد إسكندر

٢ ـ نهر اليانج تسى « الطريق الرئيسى فى قلب الصين »
ترجمة مصطفى عبد الهادى

٣ ـ المسيسبى « عملاق فى مسيرته » — ترجمة سعد الدين إبراهيم عبده

٤ ـ الكونغو « يدق أواسط أفريقيا » — ترجمة مصطفى عبد الهادى

obeikandl.com